مذكرة

مِلَـــل وَنِحَـــلْ

الإسلام من عصر الرسول ﷺ
حتى نشأة الفرق

مقدمـــــة:

بعث الله تعالى محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ، وكان العالم يعيش في ظلمات الجهل والجاهلية ، وفوضى الأخلاق والسلوك ، ووثنية وشركٍ مطبقٍ .

(إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم[1] عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب...) [2].

والعرب من جملة هذا العالم ، وهم قومه وعشيرته الأقربون ، أمة عريقة في الجاهلية واغلة في الوثنية ، اشتهروا بعبادة الأصنام ، وإتيان السحرة والكهنة والعرافين وتصديقهم والخضوع لهم ، وكذلك كانوا في حياتهم الاجتماعية : اعتداءات على الحقوق والحرمات ، ووأد البنات ، وغير ذلك من ألوان السلوك والخلق الذي ينم عن جهل وشر عظيم.

بعث الله تعالى نبيه بالهدى ودين الحق، فأقام حجة الله تعالى على خلقه بالحكمة والموعظة الحسنة فدان كثير لهذه الدعوة ودخلوا في دين الله تعالى، يأخذون دينهم غضاً طرياً من فيّ رسول الهدى والرحمة ، يأخذون ما آتاهم الله بقوة وأمانه وصدق وإخلاص.

ولقد ضربوا أروع الأمثلة في الامتثال والانقياد ، وفي حب الله تعالى وحب رسوله وتقديمهما على المال والنفس والولد ، وفي بذل الأموال والأرواح رخيصة في سبيل هذا الدين وإعلاء كلمته.

إنهم قوم اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه[3] وشرعه في زمن وفترة غصت الأرض بأنواع الضلالات والظلمات والمنكرات ، وكثر فيها الشر والفساد.

لقد عاش الرعيل الأول من رجال هذه الأمة العظيمة ، وسلفها الصالح قلباً واحداً عاضين على دينهم بالنواجذ ، باذلين كل ما يملكون في سبيل طاعة الله ورسوله ونيل مرضاتهما ، ملتفين حول خير الخلق التفافاً لم يجعل الله تعالى فيهم ولا بينهم مدخلاً للشيطان وحزبه ، أو تمكيناً له ولحزبه في صفوفهم ، بل وفقهم ربهم وكافأهم على صدقهم بالتأليف بين قلوبهم وإنزال السكينة عليهم حتى غدوا أخوة متحابين لم تفرق بينهم الأنساب والألوان والأعراف ، ولا غيرها من عصبيات الجاهلية.

---

(١) المقت من الله لا يكون إلا للفعل القبيح الذي كانوا فيه.

(٢) رواه مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥١٠٩).

(٣) جزء من قول للصحابي عبد الله بن مسعود ، أخرجه أبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٩٧٠٢).

عاش المسلمون حياةً خاليةً من الفرقة حول إمام الهدى والرحمة ، أمة واحدة ، وكلمة واحدة ، وعقيدة واحدة. نعم كانت تطرأ بعض الاختلافات في بعض المسائل ، ولكن سرعان ما كانت تتلاشى ولا يبقى لها أثر برجوعهم إلى رسول الله وانقيادهم لأمر الله تعالى وشرعه وأمر رسوله وشرعه ، هكذا عاش سلف هذه الأمة ، ولقد جاءت الآيات والنصوص الكثيرة تشهد بفضلهم ، ومنزلتهم الرفيعة بسبب حسن امتثالهم ، وصدق إيمانهم ، وعظيم تضحيتهم لهذا الدين حتى شهد الله تعالى بالرضى عنهم[1] وقُبض الرسول ﷺ وهو عنهم راضٍ.

استمر السلف على تلك الحال الصافية النقية من كل شوائب الفرقة والاختلاف ، فضلاً عن البغض والكراهية طيلة أيام خليفة رسولهم أبي بكر الصديق الذي حمل اللواء ، وسار بالركب على نهج وسيرة رسول الله ﷺ ، فما كاد خلاف ينشب أو يظهر حتى يُسوى ، وإن أعظم ما يدندن الناس حوله إلى يومنا هذا زاعمين أنه خلاف وهو ما جرى حول الإمامة والخلافة بعد رسول الله ﷺ فإنه من أعظم الكذب والتزوير في تاريخ الأمة العظيمة.

لقد علم الله تعالى والمؤمنون جميعاً أن ما طرح من آراء حول الإمامة يوم السقيفة[2] ، وإن سُمي خلافاً أو نزاعاً فإنه لم يبق ولم يستمر بل سُوي في مهده ، فما كاد يصل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى مكان الاجتماع حتى سُوي الأمر واتفق المسلمون وأجمعوا على أمرهم، والفضل لله تعالى وحده ، ثم لجهود أولئك الرجال المخلصين الذين خلفهم رسولُ الله ﷺ لقيادة هذه الأمة ، وسائر أمم الأرض.

ثم جاء الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والأمة كلها على اتفاق ، لا اختلاف بينها ولا فرقة ، واستمروا كذلك فترة خلافته حتى انتقل إلى جوار ربه تعالى بعد أن قاد الأمة ، وسار بها على نهج سلفه ، وعلى سنة وهدي رسوله ونبيه ، وكما أراد الله تعالى منه.

ثم جاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فانتهج نهج سلفيه السابقين : أبي بكر وعمر ، وعلى وفق سيرة رسول الله ﷺ ، ما زاغ عن ذلك كله قيد شبر ، ولا غيَّر ولا بدَّل رضي الله تعالى عنه ، بل سلك بالأمة المسلك القويم رغم كثرة الفتن ، وخاصة في أخريات أيامه حين لاحت بوادر الفرقة والاختلاف في حياة الأمة الإسلامية ، وارتفعت أصوات أهل الشر والفساد.

لقد عمل هؤلاء المجرمون من أيام الفتوحات التي أخضعت رقابهم ، وأذلت سلاطينهم ، وبددت دولتهم ، ومزقت جموعهم ، وحطمت أصنامهم وأوثانهم ، وإن هذا الفتح العظيم قد أقلق أهل الشر من أهل تلك الملل والنحل ، وسيف الإسلام العظيم أرعبهم ، فأظهروا لدولة الإسلام والمسلمين خلاف ما كانوا يبطنونه من الكفر والنفاق حقناً لدمائهم وحفاظاً على أرواحهم.

---

(١) قال الله عزَّ وجل في سورة التوبة : ١١٧ ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

(٢) يوم السقيفة ، عندما اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة وكانت رغبة الأنصار تولية سعد بن عبادة لكن شاء الله أن تكون البيعة لأبي بكر الصديق في السقيفة (راجع تاريخ الطبري (٢/ ٢٤١) فالقصة مبسوطة فيه).

هكذا عاش هذا الصنف الخبيث في صفوف المسلمين ، وأخذوا يعملون في ظلام الليل ما يكيدون به هذا الدين العظيم وأهله بدافع من الحقد والحسد والبغضاء. ولما فشلت سيوفهم وجنودهم ، ولما رأوا من قوة الإسلام ، اتجهوا بسهامهم ومكرهم وكيدهم إلى جوانب الإسلام العلمية والاعتقادية لإفسادها ، فاتجهوا إلى كتاب الله وسنه نبيه بأنواع من المكر والكيد.

ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] فكم زعموا أنَّ في آيات الله من تناقضٍ وتعارضٍ وتحريفٍ وتبديلٍ ، وكما قالوا في كتاب الله ، قالوا مثله وأكثر منه أضعافاً في سُنَّه رسول الله ﷺ ، وما علم أولئك الأقزام أنَّ الله تعالى قد تكفل بحفظ دينه من أيدي العابثين ، ومكر الماكرين من الكفرة والزنادقة الملحدين ، ومن نحا نحوهم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

كلما فشل إفسادهم في جانب من جوانب هذا الدين ، لجأوا إلى أسلوب آخر ، وسلاح جديد لمقاومة هذا الدين ، وهذا المد الإسلامي العظيم ، ولقد تعددت أسلحتهم ، وكثرت أساليبهم الماكرة التي استعملوها. ولقد رأوا أنهم قد وجدوا بغيتهم في أسلوب جابهوا به الدين ، وحاربوه به ، وهو محاربة الدين من داخله بتبني بعض مبادئه، وعقائده ، وسلوكياته ، والتظاهر بها ، والعمل تحت شعارها ، والتحمس في الدعوة إليها مع تجاوز الحد الشرعي فيها باسم الدعوة إليها ، وبحجة هجر الناس لها ، وإنكارها ، والبعد عنها.

إنَّ هذا الأسلوب كان وما زال من أخطر أساليب هدم الإسلام ، والفتك بأهله. ولقد وجد الأقزام المنحرفون فيه بغيتهم وضالتهم. وإنَّ حركة الغلو[1] هذه استطاعت الصمود ، ومواصلة معركتها مع الحق وأهله في حين سقوط كثير من الأساليب والحركات الأخرى ؛ ذلك لأن الغلو لا يُبدي معارضته للإسلام ، وإنما يسير مع مبادئه وعقائده متظاهراً بالحرص عليه والرجوع إلى أصوله.

لقد استطاع الغلاة في أواخر أيام الخليفة الثالث من تحقيق أغراضهم ، فأحدثوا فتنةً عظيمةً أمسى الحليم فيها حيراناً ، ولقد اختار الخليفة عدم مقاومتهم مؤثراً اعتزال الفتنة ، ولزوم الصمت ، والصبر رغبة منه في حقن دماء المسلمين ، وحباً منه أنْ تنقضي أيامه ، وهو على طريق من سبقه ، وحتى يتحقق فيه وعد رسول الله ﷺ بالشهادة[2].

واستمرت الفتنة ، وظهر بين الناس واشتهر بعض دعاة الشر والفرقة ، وواصلوا عملهم وجهدهم في بث روح الفرقة ، ونشر الفتن باسم المصلحة الدينية ، والسياسة الشرعية ، وغيرها من الشعارات الدينية التي سبروا بها كفرهم ، وحقدهم للإسلام والمسلمين ، ثم ازداد أمرهم وخطرهم ، وعمّت فتنهم حتى استشهد فيها عثمان رضي الله عنه ولحق بالنبي ورفيقيه إلى رضوان الله تعالى.

---

(١) الغلو : هو مجاوزة الحد الشرعي.

(٢) حديث شهادة عثمان (اثبتْ أحداً فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيدان) الصديق : أبو بكر والشهيدان : عمر وعثمان. صحيح الجامع للألباني (١٣١).

ثم بدأت الفرقة والاختلاط تدبُّ بين المسلمين ، وظهرت الفرق والأحزاب الواحدة تِلْوَ الأخرى ، وتشيّع لكل منها طائفة من أهل القبلة ، وأظهرت تلك الفرق أفكاراً وعقائد تخالف في جملتها ما كان عليه سلف هذه الأمة.

وكان من أول ما حدث في هذه الأمة من هذه الفرق فرقتين تشيّع لكل منها جماعة من أهل القبلة ، وهما: فرقة الخوارج[1]وفرقة الشيعة[2] ، وكانت كل فرقة محلاً وموطناً لأنواع من البدع والمنكرات ، وعملوا جميعاً تحت ظل الغلوِّ ومجاوزة الحدِّ.فغلا الخوارج في بُغض علي بن أبي طالب ، وتكفيره ، بينما غَلَت الشيعة الرافضة في حبه وولايته ، وحتى نبوته وألوهيته ، وكانت الفرقتان متقابلتين في جميع أفكارهما ، وعقائدهما ، فلا يزعم هؤلاء قولاً ، إلّا ويدعّي أولئك ضداً له.

واستمر الشيعة في غلوهم ، فتظاهروا بحب آل البيت وستروا تحته غلوهم في علي وفاطمة والحسن والحسين وأولاده. وبدأوا يُوجّهون سهام كفرهم لهذا الدين من هذا المنطلق الذي جذبوا إليه عاطفة فئة كبيرة من المسلمين. فطعنوا في الصحابة طعوناً عظيمةً ، تحز والله في نفوس أهل الإيمان ، وتذوب لها قلوبهم كمداً وحزناً ، وتثور فيها الآلام والشجون ، وتزداد حسرتهم ، ويَتَولّون وأعينهم تفيض من الدمع ألّا يجدوا ما يقمعوا به تلك الأصوات الصادرة من تلك الحناجر النتنة. إنَّ بدعتهم البشرية في تاريخها من فنون المكر والكيد والدس والتزوير والتشويه ، وغير ذلك من أنواع التآمر ما تتزلزل له الجبال الراسيات. ولولا وعد الله بحفظ هذا الدين ، وبقائه وأهله إلى يوم الدين ، لكان الإسلام منذ قرون من الأخبار والأساطير المدونة في كتب التاريخ ، أو رسوماً في متاحف الشرق والغرب ؛ ذلك لأنه لم يتعرّض دينٌ من الأديان إلى محاولات التشويه والتزوير كما تعرض له هذا الدين مع قلة مانعيه ، وضعف أهله ، وعجزهم عن الذبِّ عنه. ولكن ، ورغم كثرة قوى الشر والعدوان ، وقوة حيلتهم في حربهم الإسلام بمبادئه ، ومن داخله بسلاح الغلو وغيره ، فقد قام رجال من هذه الأمة المباركة بواجب الذبِّ عن دين الله وشرعه ، وعن الأعلام الشامخين من أوائل هذه الأمة. إنَّ هذه الجهود المباركة التي بدأت مبكرة من حين ظهور بدعهم تمثل صورة من صور حفظ الله- تبارك وتعالى- لدينه فقد قيّض- سبحانه وتعالى- رجالاً مؤمنين، علماء عاملين ، أمدهم بالتوفيق ، وأعانهم بقوةٍ منه في معركتهم أمام قوى الشر والفساد.

وهؤلاء الأعلام يتعاقبون على مَرِّ القرون ، يذبّون عن دين الله ما ينتحله المجرمون. ويستمر هؤلاء ما دامت المعركة قائمة بين الحق والضلال حتى يرث اللهُ الأرض ومن عليها ، يتصدون لكل زيف وباطل ، وتحريف وتأويل. كم تصدوا للحكام والسلاطين ، وكم ضحوا لهذه المهمة العظمية بأوقاتهم ، وجهودهم ، وحتى بأرواحهم ، وكم بذلوا لله تعالى حتى وصل إلينا هذا الدين العظيم ، وهذه النعمة العظيمة ، كما أنزلها ربنا -تبارك وتعالى- وهاهي مؤلفاتهم لا تكاد تُعد ولا تُـحصى خدمة لله تعالى ولدينه. فرحمهم الله رحمة واسعة ، وجعلنا من الذين يعرفون حقهم وفضلهم ، ويسلكون مسلكهم ، ويكملون مسيرتهم المباركة في الدفاع عن هذا الدين ، وعن حملته الأوائل رضي الله عنهم وأرضاهم ؛ تحقيقاً لوعد الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

---

(١) الخوارج : فرقة خرجت لقتال علي بن أبي طالب بسبب التحكيم ومن مذهبهم : التبرؤ من عثمان وعلي والخروج على الإمام والأمة.

(٢) الشيعة : هم الذين شايعوا علياً على الخصوص وقالوا بإمامته نصاً ووصايةً واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده.

نشأة الفرق

ظهر في القرن الأول رجلان اشتغلا وأشغلا الناس بما لم يكونوا يعرفونه عن نبيهم ، وكلاهما من الدخلاء ممن امتلأت قلوبهم حقداً وغيظاً على الإسلام وأهله.

الأول منهما كان يهودياً حاقداً لما رأى من انتصار وانتشار الإسلام ، فتظاهر بالدخول فيه طلباً للنجاة وحقن دمه ، وهو عبد الله بن سبأ[١]المعروف بابن السوداء ، وأحدث في دين الله أموراً أهمها:

القول بالوصية والنص عليها لعلي بن أبي طالب ، والقول برجعة علي إلى الدنيا قبل موته ليملأ الدنيا عدلاً وليقتص وينتقم من أعدائه ، ثم القول برجعة النبي ﷺ محتجاً لذلك بعجبه ممن يؤمن برجعية عيسى بن مريم ولا يؤمن برجعة محمد أفضل الأنبياء والمرسلين. والقول بأن علياً رضي الله عنه فيه جزء إلهية ، وأنه لم يمت ولم يقتل وأنه لا يزال حياً يسكن السحاب وأنَّ الرعد صوته والبَرْق سوطه.

وكان يظهر حب علي وحب آل البيت ويتباكى عليهم وأنهم قد ظُلموا ولابد من نصرتهم ، فاستمال بذلك فئة كبيرة من الناس إليه محبة لآل البيت وتعظيماً للنبي ﷺ وحفظ وصيته في أهل بيته من بعده ، وأقواله مأخوذة عن اليهودية والنصرانية من غلوٍّ في الأشخاص ، وحقدٍ على أمم الأرض وشعوبها من غير أهل ملتهم.

وابن سبأ هو الذي أثار الفتنة على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ممن استمالهم من الأوباش والطغام والسفهاء الذين أطاعوه فتألّبوا وثاروا على الخليفة الراشد حتى قتلوه ظلماً ، ثم نصبوا عليّاً بعده وغلوا فيه غُلوًّا عظيماً.

ولقد انفصلت فرقة من الشيعة ، وانقلبوا على علي وناصبوه العداء ، واجتمعوا ضده وضد خلافته ، وهم الخوارج الذين كفروا علياً وكل من قبل بالتحكيم وأثاروا سيوفهم في أهل الإسلام ، زاعمين أن تحكيم الرجال كفر وأن الحكم لله تعالى وحده.

وأمّا الرجل الثاني ، فهو سوسن النصراني الذي استطاع أنْ يَبُثَّ سمومه وحقده في معبد بن عبد الله الجهني[٢] فأظهر القول بالقدر وأخذ ينشر بدعته واستجاب له قوم وجماعة من أهل القبلة ، مما حمل الصحابة والتابعين على رد بدعته وإنكارها كابن عمر[٣]والحسن[٤] ومسلم بن يسار[٥] ، وذكروا عنه أنه يقول بقول النصارى ، فعرف الناس

---

(١) عبدا لله بن سبأ: الذي قال لعلي (أنت أنت) يعني الله وكان يهودياً فأسلم وكان يقول في اليهودية : يوشع بن نون وصي موسى فقال في الإسلام مثلها لعلي.

(٢) معبد الجهني : محمد بن عبدالله الجهني أول من قال بالقدر بالبصرة خرج مع ابن الأشعث على الحجاج ، صلبه عبد الملك ابن مروان بدمشق سنة ٨٠هـ.

(٣) ابن عمر: عبد الله بن عمر بن الخطاب صحابي جليل أسلم وهو صغير وروى كثيراً عن النبي، مات سنة ٧٣ هـ.

(٤) الحسن البصري: مولى زيد بن ثابت ، كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، مات في أول رجب سنة ١١٠ هـ.

(٥) مسلم بن يسار: القدوة الفقيه ، أبو عبد الله البصري مولى بني أمية.

أمره وأخذه عبد الملك بن مروان[1] سنة (٨٠ هـ) فقتله وصلبه بدمشق (قتله الحجاج[2] بأمر عبد الملك).

وقام بعده تلميذه غيلان الدمشقي[3] بحمل لواء هذه البدعة وزاد على شيخه بنسبة الخير والشر للعباد ، ووفّق الله تعالى هشام بن عبد الملك[4] بن مروان فأمر بقتله وقطع يديه ورجليه. ثم تبعه تلميذه الجعد بن درهم[5] على بدعته وضمَّ إليها بدعاً أخرى ، وتبعهم عمرو بن عبيد[6] في حمل لواء بدعة القدر ، وسلك الناس في البصرة هذا المسلك وعظمت الفتنة بهم.

وفي أواخر القرن الأول الهجري ، وبعد عصر الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم ، نبت جهم[7] بن صفوان بترمذ[8] من بلاد المشرق فأورد على أهل الإسلام شكوكاً وأشغلهم في إنكارها والتحذير منها والرد عليها.

ولقد تولدت عن بدعته بدع وبلاء عظيم وفرقة بين المسلمين لأن فتنته كانت تتعلق بصفات الله – تبارك وتعالى– وأفعاله ، وفيها من الجرأة على نفي ما أثبته الله تعالى ، ورد أخباره عن نفسه جل وعلا ، متمماً مسيرة شيخه الجعد بن درهم الذي كان ينكر أنَّ الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً وكلّم موسى تكليماً ، وكان يزعم أنَّ القرآن ليس كلامه بل هو مخلوق ، بالإضافة إلى بدعة القدر وغيرها من البدع المنكرة التي أنكرها عليه أهل العلم وحذّروا الأمة منه ومن بدعه حتى وفّق الله تعالى الأمير خالد بن عبد الله القسري[9] أمير الكوفة في دولة بني أميّة فقتله يوم عيد الأضحى سنة ١٢٤ هـ حين خطب الناس وقال قولته المشهورة: « أيها الناس ، ضَحُّوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم ، إنه زعم أنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلّم موسى تكليماً. تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيراً ». ثم نزل فذبحه في أصل المنبر ، وشكره أهل الإسلام عامة على فعله ذلك رحمه الله ، وأما الجهم بن صفوان فإنه على ضلالته العظيمة كان يحمل السلاح ويقاتل السلطان مظهراً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فخرج مع الحارث ابن سريج[10] على نصر بن سيار[11] نائب خرسان. وكان ذلك حين انتقلت الخلافة إلى مروان بن محمد (الحمار) [12] آخر خلفاء بني أميّة ، فامتنع الحارث عن بيعته وأراد الخروج عليهم.

---

(١) عبد الملك بن مروان: أبو الوليد الأموي ولد سنه ٢٦هـ ، سمع عثمان وأبا هريرة ، وهو أول من ضرب الدنانير وكتب عليها القرآن وكان الحجاج من ذنوبه، توفي سنة ٨٦هـ.

(٢) الحجاج: أهلكه الله في رمضان سنة ٩٥ هـ كهلاً ، وكان ظلوماً جباراً سفاكاً للدماء له حسنات مغمورة في بحر ذنوبه.

(٣) غيلان الدمشقي: أبو مروان تنسب إليه فرقة الغيلانية من القدرية وهو ثاني من تكلم بالقدر بعد معبد، ناظر الأوزاعي فأفتى الأوزاعي بقتله ، توفى في سنه ١٠٥ هـ.

(٤) هشام بن عبد الملك: ابن مروان، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد سنه ١٠٥ هـ.

(٥) مؤدب مروان الحمار قال عنه المدائني: كان زنديقاً ، وهو من الطبقة الرابعة من التابعين.

(٦) عمرو بن عبيد: القدري كبير المعتزلة ، قال عنه ابن المبارك : دعا إلى القدر فتركوه ، مات بطريق مكة سنة ١٤٣ هـ وقيل ١٤٤ هـ.

(٧) الجهم بن صفوان: أبي محرز رأس الجهمية ، هلك في زمان صغار التابعين ، أمر بقتله بن سيار سنة ١٢٨ هـ.

(٨) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن يحيط بها سور ، ومنها المحدث الترمذي صاحب السنن.

(٩) خالد القسري: أمير العراق من أهل دمشق ولي مكة سنة ٨٩ هـ ، وعزله هشام سنة ١٢٠ هـ ، توفي سنة ١٢٦ هـ.

(١٠) الحارث بن سريج: صلب بلا رأس على باب جرو سنة ١٢٨ هـ.

(١١) نصر بن سيار: نائب مروان بن محمد ولي خرسان ٢٠ سنة، توفي سنة ١٣١ هـ.

(١٢) مروان بن محمد الحمار: ابن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي يعرف بالحمار وبالجعدي نسبة لمؤديه ابن درهم عاش ٦٢ سنة.

فأمر نصر بن سيار الجيوش وانتدبها لقتاله ، فقاتلهم وقتل منهم طائفة كثيرة ، وأسر كذلك طائفة فيهم الجهم ابن صفوان ، فأوقف بين يدي سلم بن أحوز المازني[1] – رحمه الله – فأمر بقتله. فقال إنَّ لي أماناً من أبيك . فقال : ما كان له أن يؤمنك ، ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب ، وأنزلت عيسى بن مريم ، ما نجوت ، والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك. ثم أمر بقتله فقُتل وأراح الله تعالى البلاد والعباد. وكان ذلك سنة ١٢٨هـ[2].

وفي هذه الأثناء من اشتغال أهل السنة في الرد والإنكار على الجهمية وما ابتدعوا من تعطيل وجرأة في باب القدر والإيمان وصفات الله وأفعاله جل وعلا، ظهرت المعتزلة في زمن الحسن البصري في المائة الثانية من الهجرة لّما أظهر واصل بن عطاء مذهبه المخالف لأهل الحق في أهل الكبائر بأنهم في منزلة بين الكفر والإيمان فعزله الحسن رحمه الله ، فاعتزل مجلس أهل الحق ، ووافقه بعض أصحابه فَسُمُّوا المعتزلة. ثم انضم إليه عمرو بن عبيد بن باب ، وعليهما انتشر المذهب. وقد كان واصل بن عطاء[3] أحد الأئمة البلغاء المتكلمين ، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً. ويقول أبو العباس المبرد: كان واصل أحد الأعاجيب ، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللثغة في الراء ، فكان يخلص كلامه من الراء ، ولا يُفطن لذلك ، لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه. وأما عمرو بن عبيد فقد كان من أزهد أهل زمانه وأكثرهم عبادة ، وكان بين عينه أثر السجود وقد أثنى عليه إمام أهل السنة في عصره الحسن البصري وغيره من أئمة أهل السنة في عبادته وزهده وتقشفه. ومما قاله الحسن – رحمة الله عليه – لما سُئل عنه: « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدّبته ، وكأن الأنبياء ربّته ... إنْ أمر بشيءٍ كان ألزم الناس له ، وإنْ نهى عن أمرٍ كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهرٍ منه » .

وأصبح الاعتزال بعد هذين: واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، فرقة لها أصول وقواعد وكيان ، وقد رُزقوا في كل طبقة من طبقاتهم ، وعصر من عصورهم بجماعة من فحول الرجال من أهل البراعة والمنطق والشهرة مما ساهم في نشر آرائهم ، وأصولهم ، لحكمة أرادها الله جل وعلا. كما أنَّ اتصالهم بالخلفاء والأمراء منحهم قوة وسلطة جعلتهم يظهرون على خصومهم بالبيان والسنان.

ثم ظهر مذهب التجسيم المضاد للمعتزلة ، فظهر محمد بن كرام السجستاني[4] بعد المائة الثانية من الهجرة ، واشتهر أتباعه بالزهد والتقشف والعبادة ، وكثرت المناظرات بينهم وبين المعتزلة ، والمناكرات والفتن. فبينما كان المعتزلة ينفون ويُعطلّون ، اشتهر الكرامية بالغلو والمبالغة في إثبات صفات الله تعالى . ولم يتهيأ لمحمد بن كرام من الظروف التي تهيأت لواصل وابن عبيد ، فضعف مذهبه بعد موته سنة ٢٥٠ هـ .

كل ذلك وأمر الشيعة كان يفشو في الناس حتى حدث مذهب القرامطة ، بعد ظهور حمدان الأشعث ،

---

(١) سلم بن أحوز المازني: قيل ابن أحور بالراء وقيل بالزاي ، كان من قواد نصر بن سيار في خرسان في أواخر بني أمية.

(٢) راجع البداية والنهاية (١٠/ ٢٧) .

(٣) واصل بن عطاء: رأس الإعتزال البليغ الأفوه أبو حذيفة المخزومي، مات سنة ١٣١ هـ.

(٤) محمد بن كرام السجستاني: المبتدع شيخ الكرامية كان كثير الأصحاب ، ولكنه يروي الواهيات ، وقال عنه ابن حبان: خذل حتى التقط من المذاهب أرداها ، مكث بسجن نيسابور ٨ سنوات ، مات بأرض بيت المقدس سنة ٢٥٥ هـ.

المعروف بقرمط لقصر قامته ورجليه وتقارب خطاه ، وكان ابتداء أمرهم سنة ٢٦٤ هـ في الكوفة ، ثم عظمت الفتنة لما قامت لهم دولة في البحرين وما حولها ، وأخافوا الناس وحتى خلفاء بني العباس كثيراً ، وكانوا يتعرضون للحجاج ويعملون فيهم قتلاً وسلباً ونهباً ، ووصلوا البصرة غزاةً سنة ٣٣١ هـ وبقوا فيها سبعة عشر يوماً يسلبون ويقتلون وينهبون ويبعثون ألوان الفساد فيها ، وغزوا بغداد – وما دخلوها – والشام ومصر والحجاز ، وفرضوا الأموال على الناس ، وفي سنة ٣١٧ هـ دخلوا مكة وقتلوا الحجاج بجوار الكعبة ، وألقوا جثثهم في بئر زمزم ، وخلعوا باب الكعبة ، وأخذوا كسوتها ، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه ، وأخذوه إلى بلدتهم وبقى عندهم بضعة عشر عاماً. وكان القرامطة يسمون دعوتهم بعلم الباطن ، واشتهروا بتأويل شرائع الإسلام وصرفها عن ظاهرها ، وابتدعوا وضلوا وأضلوا خلقاً كثيراً.

وفي عهد المأمون[١] سابع خلفاء بني العباس أمر بترجمة كتب اليونان ، وجنّد لذلك الأموال والنفقات الكثيرة ، وكان ذلك بعد المئتين ببضع عشرة سنة مما أدى إلى انتشار مذاهب الفلاسفة ، واشتهرت مؤلفاتهم وكتبهم في أغلب الأمصار ، وأقبلت المعتزلة والقرامطة[٢] والجهمية والصوفية ، وغيرهم عليها ، وأكثروا من النظر فيها ، وقد صبغوا كثيراً من قواعدهم الفلسفية والكلامية بصبغة إسلامية شرعية بزعمهم ؛ لتروج بين الناس.

ولا شك أنه قد دخل على الإسلام وأهله بلاء عظيم ومحنة دينية عن طريق الفلسفة والكلام ،فعظم ضلال أهل البدع ، وازدادوا كفراً إلى كفرهم.

ثم قامت دولة بني بوية ببغداد سنة ٣٣٤ هـ – ٤٣٧ هـ ، وهي دولة الشيعة فظهر أمرهم ، وكتبوا على أبواب المساجد سنة ٣٥١ هـ : « لعن اللهُ معاوية ، ولعن اللهُ من أغضب فاطمة ، ومن منع الحسن أنْ يدفن عند جده ، ومن نفى أبا ذر ، ومن أخرج العباس من الشورى » ، وكثرت الفتن ببغداد بين السنة والشيعة.

ثم فشا مذهب الاعتزال لما بينهم وبين الشيعة من تقارب وجهات النظر أو الاتفاق في كثير من مسائل الإيمان والأصول.

ثم قوي أمر الفاطميين[٣] بمصر وإفريقية حتى ملكوها سنة ٣٥٨ هـ ، وهكذا انتشر مذهب الرفض في الشام ومصر والعراق وخراسان والحجاز واليمن ، وكثرت الفتن بينهم وبين أهل السنة ، وكذا القتال والحروب، وامتلأت الأرض والبلاد الإسلامية بمن نظر في الفلسفة من رافضة وجهمية ومعتزلة وكرامية وقرامطة وخوارج وصوفية وباطنية.

وكان علي بن إسماعيل الأشعري تلميذاً لأبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، وأخذ عنه الاعتزال ولازمه

---

(١) سابع خلفاء بني العباس عبد الله بن هارون الرشيد ولد سنة ١٧٠ هـ . ولم يرجع عن مسألة القرآن حتى أخذه الله سنة ٢٢٨ هـ.

(٢) القرامطة: فرقة باطنية خبيثة ، وقصة سرقة القرامطة للحجر مبسوطة في البداية والنهاية لإبن كثير (ج ١١ ، ص ١٦٠).

(٣) الفاطميين: رأسهم عبيد الله بن ميمون القداح كان يهودياً صباغاً فادعى الإسلام وأنه شريف فاطمي فتبعة الجهلة وصارت له دولة.

أعواماً طويلة ، حتى وفّقه الله إلى تركه وترك الاعتزال فانتقل إلى مذهب أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كُلّاب[1] وتبعه في الصفات والقدر.

سلك الأشعري مذهباً وسطاً بين النفي والتعطيل وبين غلاة أهل الإثبات المجسمة وتبعه على مذهبه ذلك جهابذة الزمان وحفاظ الأنام في ذلك العصر وبعده : القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي ، وأبو بكر بن فورك ، وأبو إسحاق الاسفراييني ، وأبو إسحاق الشيرازي ، وأبو حامد الغزالي ، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، وأبو بكر الرازي ، وأبو المعالي الجويني ، وغيرهم من الأذكياء ، والعلماء الذين نشروا مذهبه ، وصنّفوا فيه ، وهذّبوه وزيّنوه فانتشر المذهب في العراق ثم في الشام حتى كانت دولة بني أيوب الذين اعتنقوا المذهب ، فنشروه وحملوا الناس عليه ، فساد المذهب في المشرق. ثم أخذه محمد بن تومرت بعد أن تتلمذ على أصحاب أبي حامد الغزالي ثم عاد إلى بلاده في المغرب ، وقامت دولتهم هناك باسم دولة الموحدين ، فساد المذهب غرباً بعد أن ساد شرقاً. فعم المذهب التلفيقي وساد حتى نسى الناس ، ولم يبق مذهب يخالفه وينازعه إلا ما كان من بعض الحنابلة في أماكن متفرقة ، يظهرون مذهبهم أحياناً ، ويخفونه أحياناً خوف البطش من الأشاعرة السلاطين الذين ملكوا أو تحكموا في البلاد والعباد.

وكذلك كان ينتشر مذهب أبي منصور الماتريدي[2] في أقصى الشرق وما وراء النهر ، وكان بين مذهبه ومذهب الأشعري تشابه كثير في الأصول ومسائل الاعتقاد. ولا شك أن لهذين المذهبين ولعلمائهما فضل عظيم في محاربة الاعتزال وبيان فساد مذهبهم بعد أن كان قد ساد وانتشر في معظم بلاد الإسلام.

ثم إنَّ أبا الحسن الأشعري - رحمه الله - مال إلى عقيدة أهل السنة والجماعة وأعلن نقلته هذه بقوله: « قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل – نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته – قائلون ، ولمن خالف قولُه قولَه مجانبون ؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله تعالى به الحق عند ظهور الضلال. ثم بقي - رحمه الله - ينتصر لأهل الحديث ومذهبهم فألّف وكتب الإبانة والمقالات وغيرها ، وظلَّ رحمه الله مختلطاً بأهل الحديث حتى توفي سنة ٣٣٠ هـ ، ولكن تلاميذه وأتباعه ظلّوا على مذهبه في طوره الثاني ، وما زالوا يصرّون على ذلك وينسبونه إلى أبي الحسن الأشعري رحمه الله.

ثم ظهر بعد السبعمائة من الهجرة بدمشق وأعمالها شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، وأظهر الله على يديه مذهب أهل السنة وسلف الأمة ، وكشف للناس أمر الأشاعرة وحقيقة مذهبهم ، فجدّد للناس والأمة أمر دينهم ، وحمل لواء الرجوع إلى الأمر الأول ، لِمَا كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، ولقد جاهد في سبيل هذه الغاية جهاد الأبطال فبالغ – رحمه الله – في الرد على الأشاعرة ؛ لأنه اشتهر بين العامة والخاصة أنَّ مذهبهم هو

(١) أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلّاب: رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه ، وكان يلقب كلاباً لأنه كان يجر الخصم لنفسه ببيانه وبلاغته وقيل غير ذلك.

(٢) أبو منصور الماتريدي: محمد بن محمد بن محمود الماتريدي إمام المتكلمين، توفي سنة ١٩٥ هـ.

مذهب أهل السنة والجماعة ، وكذلك فعل مع الرافضة والصوفية والفلاسفة والمناطقة والملاحدة واليهود والنصارى؛ كشفاً لما عليه أهل الملل والنحل من الضلال والانحراف ، وذبًّا عن دين الله الحق ومذهب سلف الأمة ، واستمر في جهاده بالبيان والسنان حتى توفاه الله تبارك وتعالى سنة ٧٢٨ هـ بعد حياةٍ مليئةٍ بالجهاد والمحن الكثيرة رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء ، وألحقنا به بمنه وكرمه.

يقول فيه الإمام الذهبي – رحمه الله: « شيخنا وشيخ الإسلام ، وفريد العصر علماً ومعرفةً وشجاعةً وذكاءً ، وأمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر. وأنه أكبر من أنْ ينبه على سيرته مثلي ، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله ، وأنه ما رأى مثل نفسه. ولقد نصر السنة المحضة ، والطريقة السلفية ، واحتج لها ببراهين ومقدمات لم يسبق إليها » .

ثم استمر تلاميذه من بعده يواصلون الذبَّ عن دين الله تعالى وإظهار عقيدة وعلم سلف الأمة والصدر الأول من أمثال ابن القيم[١] وابن عبد الهادي[٢] وابن كثير[٣] والذهبي[٤] وغيرهم مِمَّن نصر اللهُ تعالى بهم الدين والملة ، وما زال الناس يستضيئون بنور علمهم وعلم شيخهم إلى يومنا هذا ولله الحمد والمنة.

وإن المعركة بين الحق والباطل ستستمر إلى آخر الزمان ولكن الحق سيبقى ولن يزول مهما كثر أهل الباطل وكثر عددهم وعدتهم وقويت شوكتهم وقامت دولتهم تحقيقاً لوعد الله ووعد رسوله «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي وعد الله** »[٥] .

والحق أن أصل كل بدعة في دين الله تعالى هو البعد عن وحي الله تعالى : الكتاب والسنة ، ومنهج السلف الكرام وطريقتهم في فهم نصوص الوحي والتعامل معها ، فأصل كل ضلال وبدعة هو الانحراف ومجانبة معتقد الصدر الأول.

فنرى مثلاً القدري يبالغ في القدر حتى يجعل العبد إلهاً خالقاً ، بينما يبالغ الجبري في مقابلته فيجعل العبد كالريشة في مهب الريح.

ونرى المعطل يبالغ في التنزيه فيسلب عن ربه الصفات ، ويقابله المشبه الذي يبالغ في الإثبات تمثيلاً وتشبيهاً.

ونرى المرجئ يبالغ في سلب وتهوين الوعيد والعقاب ، ويقابله المعتزلي والخارجي (الوعيدية) فيبالغون في الوعيد وتخليد العصاة في النار.

---

(١) ابن القيم: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، لازم شيخ الإسلام ملازمة تامة ما يقارب ١٦ سنة فنهل من علمه الواسع. توفى رحمه الله سنة ٧٥١ هـ .

(٢) هو الإمام العالم الناقد معبد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي ولد سنة ٧٠٥ هـ ، حصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار وتفنن في الحديث والنحو والتصريف والفقه والتفسير والقراءات والتاريخ ، وله مجاميع وتعاليق مفيدة وكان حافظاً لأسماء الرجال وطرق الحديث وعارفاً بالجرح والتعديل بصيراً بعلل الحديث ، حسن الفهم له ، جيد المذاكرة ، صحيح الذهن، مستقيماً على طريقة السلف واتباع الكتاب والسنة ، مثابراً على فعل الخيرات، توفي رحمه الله سنة ٧٤٤ هـ مات وهو دون الأربعين.

(٣) ابن كثير: العلامة الحافظ ذو الفضائل أبو الفداء صاحب تفسير القرآن العظيم ، والبداية والنهاية، توفى سنه ٧٧٤ هـ.

(٤) الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، ولد بدمشق سنة ٦٧٣ هـ ، كف بصره سنة ٧٤١ هـ وتوفى سنة ٧٤٨ هـ.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد.

ونرى الناصبي[1] يبالغ في دفع الإمامة عن علي ، فيعاديه ويبغضه تقرباً إلى الله بزعمه ، ويقابله الغلاة من أهل الغلو فيعتقدون حقه في النبوة والألوهية.

ونرى بعض أهل السنن يبالغون في تقويم أبي بكر فيزعمون أن إمامته نص ووحي ، ويقابلهم الرافضة فيبالغون في تأخيره وتكفيره قبحهم الله.

فميدان الظن واسع ، وحكم الوهم غالب ، وعلة ذلك كله البعد عن نور الوحي واعتماد الوهم والظن والخيال؛ لذلك تعارضت الظنون وكثرت الأوهام عند كل فريق مما أدى إلى تعدد الفرق والملل والنحل ، ثم أعجب كل فريق بما لديه من الأوهام والظنون ، يظنها أدلة وحجة مما أدى بهم إلى الشر والعناد والبغي والفساد والعدوان حتى تباغضوا وتلاعنوا ، وأعملوا سيوفهم وبيانهم في بعضهم مستحلين الأموال ومستبيحين الدماء والأعراض ، ولقد استعان كثير منهم بالدول والملوك الكفار ضد بعضهم الآخر انتصاراً لمذهبهم ، فعاشوا كذلك ، وما زالوا في التقاطع والتدابر والاختلاف ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولن يغير الله حالهم إلا باعتصامهم بما هو عصمة وسبب للنجاة والألفة والاتفاق والتآلف ، وما ذلك إلا بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة.

* * *

(١) الناصبي : من النواصب الذين نصبوا العداء لأهل البيت.

الخـــــوارج

لما رجع علي ﷺ من الشام بعد موقعة صفين ، ذهب إلى الكوفة ، ولما دخلها انعزلت عنه طائفة من جيشه ، قيل ستة عشر ألفا ، وقيل اثني عشر ألفا ، وقيل غير ذلك. فباينوه وخرجوا عليه وأنكروا ونقموا عليه أشياء. فبعث إليهم عبد الله بن عباس فناظرهم ورد على شبههم ، فرجع بعضهم ، واستمر الآخرون على ضلالهم ، ثم تعاهدوا فيما بينهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتميزوا إلى موضع يقال له النهروان وأمّروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي[1] المعروف بذي الثفنات (لأن ركبته كانت كثفنات[2] الإبل من كثرة السجود).

وكان أول نزولهم في أرض حروراء ، في جانب من الكوفة. وقد عتبوا على علي بن أبي طالب فقالوا: "انسلخت من قميص ألبسكه الله (أي الإمارة) ، واسم سمّاك به الله ، ثم انطلقت فحكمت في دين الله – ولا حكم إلا لله – ويقال أن علياً ﷺ أمر الرجال بحمل المصاحف ثم دعا بمصحف إمام عظيم فوضعه بين أيدي الرجال وجعل يصكه بيده ويقول: أيها المصحف حدث الناس. ثم قرأ عليهم: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء : ٣٥] فأمة محمد أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل . وقال: ونقموا علي أن كاتبت معاوية: كتب علي بن أبي طالب. وذكّرهم بفعل رسول الله ﷺ في الحديبية لمّا رفضوا أن يكاتبهم باسم الله وباسم رسوله. فكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشاً. ثم قرأ عليهم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١] ولقد بقي كثير منهم ينقم على علي ﷺ أمثال هذه الأمور ، ثم قال أحدهم وعلي يخطب الناس: يا علي أشركت في دين الله الرجال ولا حكم إلا لله، والله تعالى يقول: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥] . ثم تنادوا من كل جانب « لا حكم إلا لله ، لا حكم إلا لله» ، وجعل علي يقول: هذه كلمة حق يراد بها باطل. ثم قال: إن لكم علينا ألّا نمنعكم فيئا[3] ما دامت أيديكم معنا ، و ألّا نمنعكم مساجد الله ، و ألّا نبدأكم القتال حتى تبدؤونا. ثم إنهم خرجوا بالكلية عن الكوفة وتميزوا إلى النهروان.

اشتد أمر الخوارج في النهروان وبالغوا في النكير على علي وصرحوا بكفره. ولقد أرسلوا له رجلين منهما يأمرانه بالتوبة والرجوع إلى الحق بزعمهما ثم قال أحدهما: لأقاتلنك ؛ أطلب بذلك رحمة الله ورضوانه. ثم خرجوا بحكم الكفر، وجاهروا به في الناس وتعرضوا له في خطبة وأسمعوه السب والشتم.

ثم اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي ، فخطبهم خطبة بليغة زهدهم في الدنيا ورغبهم في

---

(١) عبد الله بن وهب: أول من أمّره الخوارج عليهم، قتل مع أصحابه في صفر ٣٨ هـ ، وكان ذا علم ورأي وفصاحة وشجاعة وكان عجباً في العبادة والزهد ، أدرك النبي ولم يصحبه ، شهد الفتوح مع سعد بن أبي وقاص ، قتل يوم النهروان.

(٢) ثفنات الإبل: ركب الإبل.

(٣) فيئا: هو ما يأخذه المسلمون من أعدائهم من الغنائم.

الآخرة والجنة وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأمرهم بالخروج من ﴿ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [النساء: ٧٥] إلى جانب هذا السواد ، إلى بعض كور الجبال. ثم خطبهم حرقوص بن زهير – وكان إماماً لهم في صلاتهم – ومما قاله: إنَّ المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإنَّ الفراق لها وشيك ، فلا تدعونكم زينتها أو بهجتها إلى المقام بها ، ولا تلتفت بكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

ثم خطبهم ثالث ورابع في اجتماعهم ذلك. ثم قال أحدهم: أشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهوى ، ونبذوا حكم الكتاب ، وجاروا في القول والعمل، وأن جهادهم حق على المؤمنين. فبكى رجل منهم ، ثم حرض أولئك الخوارج على الخروج على الناس وقال في كلامه: اضربوا وجوههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم، فإن ظفرتم ، وأطيع الله كما أردتم ، أثابكم ثواب المطيعين له العاملين بأمره ، وإن فشلتم فأي شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته.

ثم بعثوا إلى إخوانهم ، ممن هم على رأيهم ومذهبهم من أهل البصرة وغيرها حتى اجتمع منهم جمع عظيم بالنهروان وصارت لهم شوكة ومنعة ، وهم جند مستقلون وفيهم شجاعة وإقدام ، وبزعمهم أنهم يتقربون إلى الله تعالى بذلك. ثم إنهم عاثوا في الأرض الفساد ، وسفكوا الدماء ، وقطعوا السبيل، واستحلوا المحارم ، وكان من جملة من قتلوه: عبد الله بن خباب الصحابي الجليل ، وذبحوا امرأته وبقروا بطنها عن حملها.

ثم عزم علي ومن معه على قتال الخوارج والبداءة بهم قبل أهل الشام. ولما تراءى الجيشان قال علي لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤوكم. وأقبلت الخوارج يقولون: لا حكم إلا لله ، الرواح الرواح إلى الجنة ، وحملوا على الخيالة الذين قدمهم علي على جيشه ، وانهزموا شر هزيمة وقُتل أمراؤهم: عبد الله بن وهب ، وحرقوص[1] بن زهير وغيرهما.

يقول أبو أيوب[2] : « طعنتُ رجلاً من الخوارج بالرمح فأنفذته من ظهره وقلت له: أبشر عدو الله بالنار. فقال: ستعلم أينا أولى بها صلياً » . ولم يُقتل من أصحاب علي إلا سبعة نفر ، وجعل علي يمشي بين القتلى ويقول: بؤساً لكم ، لقد ضركم من عزكم. وأنه لما وجد بين القتلى ذا الثدية المخدج سجد سجدة طويلة.

ذكر ما ورد في الخوارج

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : « بينما رسول الله ﷺ يقسم ذات يوم قسماً قال ذو الخويصرة التميمي : يا رسول الله اعدل » . فقال رسول الله ﷺ : « **ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل** » . فقال عمر : يا رسول الله أتأذن لي أن أضرب عنقه؟

---

(١) حرقوص: الملقب بذي الخويصرة شهد صفين مع علي وبعد التحكيم صار أشد الخوارج على علي فقتل بالنهروان.

(٢) أبو أيوب: المخزومي البخاري واسمه خالد بن زيد بن كليب خصه النبي ﷺ بالنزول عليه، له عدة أحاديث في البخاري ومسلم ، شهد المشاهد كلها، قال الخطيب: شهد حرب الخوارج مع علي، مات سنة ٥٢ هـ ودفن بأصل حصن بالقسطنطينية ، قال الذهبي : «بلغني أن الروم يتعاهدون قبره ويستسقون به » .

فقال: « لا ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاتهم إلى صلاتهم ، وصيامه إلى صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ... يخرجون على فرقة من الناس ، آيتهم رجل أدعج مخدج ، وإحدى يديه مثل ثدي المرأة ... » [١].

«... سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القيل ، ويسيئون الفعل ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، هم شر الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه. يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء ... سيماهم التحليق»[٢].

«تمرق مارقة على حين فرقة من الناس – وفي رواية: «من المسلمين» ، وفي أخرى: « من أمتي » – فيقتلها أولى الطائفتين» [٣].

« تفترق أمتي فرقتين ، فتمرق بينهما أولى الطائفتين بالحق» [٤].

« إن فيكم فرقة يتعبدون ويدينون حتى يعجبوا الناس ، وتعجبهم أنفسهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» [٥].

«... يدعون أهل الأوثان ، ويقتلون أهل الإسلام ...».

«... يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ... لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد...».

ولقد سئل علي ﷺ عن أهل النهروان : أمشركون هم ؟ فقال : « من الشرك فروا » . قيل : أفمنافقون ؟ قال : « إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً » . فقيل : فما هم ؟ قال : « إخواننا بغوا علينا ، فقاتلناهم ببغيهم علينا ».

ولقد تركت هزيمة النهروان في نفوس الخوارج أثراً وجرحاً لا يزول ، فصارت هذه الموقعة والهزيمة عندهم رمزاً للجهاد والاستشهاد الديني وأساساً للحماس الديني والتأثير المعنوي للبذل والعطاء والتضحية والفداء في جميع ثوراتهم التي أقاموها في دولة الإسلام وبين أهل الإسلام. وهي تعادل مأساة كربلاء بالنسبة للشيعة في إذكاء نار الفتنة وتأجيج شعورهم وحميتهم ضد أهل الحق والسنة ، والانتقام منهم.

وإن من أعظم صور الانتقام التي قاموا بها هو مقتل أمير المؤمنين والخليفة الرابع في دولة الإسلام. وذلك أن ثلاثة من الخوارج وهم: عبد الرحمن بن ملجم الحميري[٦] ، وكان أسمر حسن الوجه ، في وجهه أثر السجود، والبُرَك ابن عبد الله التميمي[٧] وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا فتذاكروا قتل علي لإخوانهم ، وترحموا عليهم وقالوا: ماذا

---

(١) البخاري : كتاب المناقب ، باب علامات النبوة. ومسلم: كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم.

(٢) أخرجه البخاري وابن ماجة في سننه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣:٧٩) والبيهقي في الكبرى (٨:١٧٨) ، وأبو نعيم في الحلية (٩٩١٣).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣:٧٩) والبيهقي في الكبرى (٨:١٧٨) ، وأبو نعيم في الحلية (٩٩١٣).

(٥) سنن النسائي كتاب ٢٣/ ٧٩.

(٦) حاشية (٦) ص ١٤.

(٧) البرك بن عبد الله التميمي: الصريمي وقيل اسمة الحجاج.

نصنع بالبقاء بعدهم. وقد اشتهروا بأنهم لا يخافون في الله لومة لائم فقالوا: لو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم ، وأرحنا منهم البلاد وأخذنا بثأر إخواننا منهم. فقال ابن ملجم: أما أنا فأكفيكم علي ابن أبي طالب. وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية. وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص.

ثم إن عروس ابن ملجم حرضته وزادت من حماسه. واسمها قطام ابنة الشجنة ، وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهروان. فسار ابن ملجم إلى الكوفة ، ومما قاله لبعض أصحابه:... **فإن شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا**. وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها. ولقد أراد الله تعالى أمراً فتمكن ابن ملجم الخبيث من ضرب علي حين خروجه لصلاة الغداة ، وقال حين يضربه: لا حكم إلا لله ، ليس لك يا علي ولا لأصحابك وتلا قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وكان ذلك في السابع عشر من رمضان سنة (٤٠ هـ).

وقد امتدح ابنَ ملجم بعضُ الخوارج المتأخرين – في زمن التابعين – وهو عمران بن حطان[١] ، وكان أحد العباد وله روايات عن عائشة في صحيح البخاري[٢] قال فيه:

يا ضربةً من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً

إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

والخلاصة أن أول بدعة حدثت في الإسلام : بدعة الخوارج والشيعة ، حدثتا في خلافة علي . أما الخوارج فقاتلهم ، وأما الشيعة فأحرق غاليتهم وطلب قتل ابن سبأ فهرب. والخوارج هم أول من كفرالمسلمين بالذنوب ، وكفروا من خالفهم في بدعتهم واستحلوا دمه وماله. ولم يختلف الصحابة في قتالهم كما اختلفوا في قتال الفتنة يوم الجمل وصفين.

* * *

(١) عمران بن حطان: ابن ظبيان السدوسي البصري من أعيان العلماء لكنه من رؤوس الخوارج توفى سنة ٨٤ هـ.

(٢) الخوارج من أصدق أهل البدع فتقبل روايتهم وقد قال أبو داود : « ليس في أهل الأهواء أصح حديثاً من الخوارج » فلا تعجب إذا وجدنا لهم روايات صحيح في البخاري .

آراء الخـــوارج

يكاد الخوارج يجمعون على:

١) تكفير علي وعثمان والحكمين ، ومن رضي بالتحكيم ، وأصحاب الجمل: عائشة وطلحة والزبير.
٢) تكفير مرتكب الكبيرة من أهل الإسلام إن مات على كبيرته ، والحكم عليه بالخروج من الإسلام والخلود في النار. (باستثناء فرقة منهم وهي النجدات فقد حملوا كفر مرتكب الكبيرة والذنوب على كفر النعمة لا كفر الملة).
٣) وجوب الخروج على الإمام الجائر الظالم المخالف للسنة. كما أنهم جوزوا الإمامة في غير قريش.

ويغلب على الخوارج التشدد في فهم النصوص الشرعية ، والتشدد في الأعمال والعبادات حتى أنهم اشتهروا أنهم أصحاب جباه قرحها طول السجود، وركب كثفنات الإبل. وكذلك كانوا أهل شدة في معاملة خصومهم ومجادلتهم ، فكانوا يمتحنون الناس ويحملونهم على قبول آرائهم وعقائدهم بالقسوة والعنف ، وكانوا يكفرون مخالفيهم – إلا عند بعضهم – وكانوا يعتبرون دار غيرهم من أهل الإسلام دار حرب ، يستحلون أموالهم وأعراضهم ودماءهم ، وكانوا يقتلون من يخالفهم من أهل الإسلام في حين يستوصون بالنصارى وغيرهم من أهل الأديان والملل الأخرى خيراً ويقولون: «احفظوا ذمة نبيكم».

وذكر أبو الحسن الأشعري عنهم القول بخلق القرآن ، وأنهم على مثل مذهب المعتزلة في التوحيد ، أي تعطيل الصفات ونفيها تنزيهاً له تعالى عن تعدد القدماء. وفي القدر منهم من يوافق المعتزلة في نفي القدر ، ومنهم من يوافق أهل الحق. وأنهم يثبتون إمامة أبي بكر وعمر ، وينكرون إمامة عثمان بعد الأحداث التي نقموها عليه. ويقولون بإمامة علي قبل التحكيم.

ومن ألقاب الخوارج:

الخوارج: وذلك لخروجهم على علي بن أبي طالب – وقيل لخروجهم قبل على عثمان.
الحرورية: سموا به لنزولهم بحروراء في أول أمرهم بعد انفصالهم عن جيش علي.
المحكِّمة: سموا به لإنكارهم الحكمين ، ومن رضي بهما ولقولهم إن الحكم إلا لله.
الشُراة: سموا به لقولهم شرينا أنفسنا في طاعة الله ، أي بعناها بالجنة.
المارقة: لمروقهم عن دين الله كما جاء في النصوص الشرعية.

وهم يرضون بجميع هذه الأسماء والألقاب عدا المارقة ، فإنهم ينكرون كونهم مارقة عن الدين.

والخوارج يخالفون الشيعة ويقابلونهم في أصولهم وآرائهم ، فهم يكفرون علياً ، ويعظمون قاتله ، بينما تبالغ الشيعة وتغلو في تقديسه.

وبينما يتواصى الشيعة بالتقية والمداراة والمصانعة للمخالفين ، يوجب هؤلاء الخروج على السلطان الجائر مهما كانت النتائج والظروف ، فضلاً عن مطلق المخالفين.

الأزارقـــــة

هم أتباع نافع بن الأزرق[1] . اجتمع ونجدة بن عامر[2] في مكة بعبد الله بن الزبير ، حيث عرضا عليه أصول الخوارج وآراءهم ، فلم يوافقهما ولكن اختلف بعد هذا اللقاء نافع ونجدة. فقال نافع بعدم جواز التقية ، وأن القعود عن القتال كفر محتجاً بقول الله : ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴾ [المائدة: ٥٤] بينما ذهب نجدة إلى جواز التقية محتجاً بقول الله : ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ، وبقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ غافر: ٢٨ فافترقا فذهب نافع إلى البصرة ، ونجدة إلى اليمامة.

ثم أمّر الخوارج الأزارقة عليهم نافعاً ولقبوه بأمير المؤمنين ، وذلك بعد عزمهم على محاربة الظلم والعدوان والطغيان. وكان عددهم قرابة (٣٥٠) رجلاً. ثم انظم إليهم خوارج اليمن وعمان وغيرهم حتى أصبحوا ثلاثين ألفاً ، وكانوا أكثر الخوارج عدداً وأعظمهم شوكة وشدة في مذهبهم.

بسط الأزارقة نفوذهم وسلطانهم على الأهواز وإقليم فارس وكرمان بعد قتل ولاتها والاستيلاء على أموالها وخراجها ، ثم اتخذوها دار هجرة لهم. ثم أعلن نافع القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن دار المخالفين دار كفر وحرم أكل ذبائحهم ، ومناكحتهم ، وأعلن البراءة من جميع المخالفين وممن يقعد عن محاربتهم من الخوارج ، ووافقه على رأيه جماعات ممن اشتهروا بشدة الشكيمة ، والقوة، والجرأة، والإقدام في الحروب.

وقعت عدة حروب بينهم وبين أمير العراق حتى قُتل نافع بن الأزرق بعد عدة معارك وحروب. وأشغلوا الدولة الأموية ، وطالت بينهم الحروب ، ثم أسند عبدالملك بن مروان إمرة العراق للحجاج بن يوسف ، فجاء وحث الناس بل وتوعد من يتخلف عن الانضمام إلى جيش المهلب بن أبي صفرة[3] في قتال الخوارج ، فنفر الناس خفافاً وثقالاً لحرب الخوارج بعد أن تعبوا وملوا من كثرة الحروب وشدة بأس الخوارج ، ولكن الله تعالى وفق أهل الإسلام بقيادة المهلب على إلحاق الهزيمة بهم وقتل زعيمهم قطري بن الفجاءة[4] ، فأراح الله منهم البلاد والعباد.

واشتهر الأزارقة بمبادئ وأصول يشاركون غيرهم من الخوارج في بعضها ويتميزن عنهم في أخرى ، وأهمها:

- تكفير علي بعد التحكيم ، وعثمان في أواخر أيامه ، وطلحة والزبير وعائشة وابن عباس ومن خالف آرائهم من أهل الإسلام.

- اعتبار ديار المسلمين دار حرب يجوز فيها قتل النساء والأطفال وتحرم ذبائحهم ومناكحتهم.

---

(١) نافع بن الأزرق: هو رأس الأزارقة، خرج في آخر دولة يزيد بن معاوية، قتل سنة ٦٥ هـ.

(٢) نجده بن عامر: الحنفي، استولى على اليمامة والبحرين سنة ٦٦ هـ ، وقتله أصحابه سنة ٦٩ هـ.

(٣) المهلب بن أبي صفرة: أمير خرسان، صاحب الحروب، حارب الأزارقة وأباد منها ألوف، توفى سنة ٨٢ هـ.

(٤) قطري بن الفجاءة: من رؤوس الأزارقة، استفحل أمره في زمن مصعب بن الزبير، اختلف المؤرخون في قتله توفي سنة ٧٨ هـ.

- تبرأوا من كثير من الخوارج واعتقدوا كفرهم.

- اعتقاد وجوب امتحان من يهاجر إليهم ، واعتقاد عدم جواز التقية مطلقاً.

- اعتقاد أن مرتكب الكبيرة كافر خارج عن الإسلام.

- اعتبار القرآن وحده المصدر الأساسي للأحكام الشرعية وعدم الاعتداد بالسنة في نسخ وتخصيص القرآن الكريم ؛ لذلك أوجبوا الحد على قذف المحصنات دون المحصنين ، كما أسقطوا الرجم عن الزاني المحصن ، وكانوا يقطعون يد السارق في القليل والكثير ولم يعتبروا فيه نصاباً.

* * *

الأباضيـــــة

هم أتباع عبد الله بن أباض التميمي[1] عاش في النصف الثاني من القرن الأول من الهجرة. وكانت صولتهم وجولتهم في جزيرة العرب وخاصة بلاد اليمن والحجاز ، وكانوا يمتازون بالسكينة والتسامح والدعوة إلى مبادئهم بالحكمة والرفق ، ولا يرضون تسميتهم بالخوارج ، بل يعدون أنفسهم كمذهب من مذاهب أهل السنة في الفروع.

والأباضية يجمعون على القول بإمامة عبد الله بن أباض ، وأن مخالفيهم من هذه الأمة براء من الشرك ومن الإيمان ، فهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار نعمة. وحرموا بذلك دمائهم وأجازوا شهادتهم ومناكحتهم ، ولكنهم أجازوا قتلهم علانية بحجة أنهم محاربون لله ولرسوله ولا يدينون دين الحق. واستحلوا من أموالهم الخيل والسلاح وما يستعان به على القتال.

ثم هم محافظون على تعاليم الإسلام، ويرون إمامة أبي بكر وعمر ، وأما عثمان فإنهم لا يحبونه بل يبغضونه ويسمونه « صاحب بدع » ، وكذلك ينكرون على علي قبول التحكيم ، ويقولون ببطلان بيعته بعدها. ولكنهم لا يلعنون عثمان وعلي وإن أبغضوهما.

ثم إن الأباضية افترقت فيما بينهما إلى فرق أربع منها الغلاة كالزيدية[2] القائلين بنسخ شريعة محمد في آخر الزمان.

ومنهم من بالغ في بغض عثمان وتكفيره ، ومنهم من زعم أن قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، نزلت في علي: وأن قول الله ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] نزلت في عبد الرحمن بن ملجم.

أبرز مخالفات الأباضية لأهل السنة:

١) التأويل في صفات الله وعامتهم يقول بخلق القرآن ، وبعضهم يقول أنه كلامٌ نفسي وينكرون رؤية الله تعالى.

٢) إنكارهم الشفاعة لأهل الكبائر وطعنهم في الصحابة.

٣) تجويزهم الخروج على أئمة وجماعة المسلمين بالمعاصي والفسق والظلم ، وعدم الاعتداد بولاية عثمان وبني أمية وبني العباس ومن سواهم طيلة تاريخ المسلمين ، واتخاذهم أئمة لهم ظاهراً وباطناً مع كامل الولاء (للأمراء) الذين خرجوا على الصحابة.

---

(١) عبد الله بن أباض: يعد ابن أباض من طبقة التابعين، لم يذكر له تاريخ موثق لوفاته وولادته لكنه عاصر عبد الملك بن مروان سنة (٨٦ هـ) وأجمعت الأباضية قديما وحديثاً على إمامته.

(٢) الزيدية: أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، حصروا الإمامة في أولاد فاطمة ولم يجوزوها في غيرهم.

٤) عدم الاعتداد بالمذاهب الفقهية السنية الأربعة فضلاً عن غيرها ، واعتماد مناهج وأصولٍ في الاستدلال خاصة بهم.

٥) اعتمادهم على مسند الربيع (المسمى الجامع الصحيح لربيع بن حبيب الأزدي) ويعدونه أصح كتاب بعد كتاب الله مع طعنهم في صحيح البخاري ومسلم ويعدون الربيع من أوائل أئمتهم.

وهذا المسند لم تتلقاه الأمة بالقبول ولا تتوافر فيه شروط التقديم والصحة وهو مليء بالمراسيل والمجاهيل ، ثم بين راويه وهو شيخهم الورجلاني المتوفى سنة (٥٧٠ هـ) وبين الربيع خمسة قرون والسند منقطع بينهما.

* * *

المعتزلـــة

المعتزلة فرقة كلامية معروفة نشأت في أوائل القرن الثاني الهجري على يد واصل بن عطاء (٨٠-١٣١ هـ) لـمّـا اعتزل مجلس إمام أهل السنة الحسن البصري على مسألة حكم مرتكب الكبيرة في زمن فتنة الأزارقة الخوارج واختلاف الناس بسببهم وفتنتهم في أصحاب الذنوب من أهل الإسلام. فخالف واصل قول أهل السنة واعتزل بذلك مجلس السنة فأُطلق عليه وعلى من وافقه واعتزل معه «المعتزلة» ، ثم أخذ واصل يدعو إلى بدعته وما سبقه إليه معبد الجهني وغيلان الدمشقي ، ثم وافقه عمرو بن عبيد وانضم إليه، ثم مكحول[١] بن عبد الله، وقتادة[٢] بن دعامة السدوسي وهؤلاء يمثلون الطبقة الأولى ، وهم نواه المدرسة الأولى للاعتزال والانحراف عن السنة وأهلها.

ثم يليهم: أبو الهذيل[٣] العلاف (١٣٠-٢٣٥ هـ) ، واشتهر شهرة عظيمة بعلم الكلام ، وقوة الجدال والمناظرة ، حتى قال فيه المأمون: «أطل أبو الهذيل على الكلام إطلال الغمام على الأنام».

وكذلك إبراهيم بن سيار النظام[٤] ، الذي تبحّر في الفلسفة وانفرد عن المعتزلة بآراء خاصة. وقد توفي سنة (٢٣١ هـ).

وبشر بن المعتمر[٥] الهلالي وغيرهم من أساطين المعتزلة ، وتعتبر هذه المرحلة وهذا العصر من أوج المذهب وقوته لوجود عدد من دهاتهم وأساطينهم في مذهبهم.

ثم أعقب هؤلاء وهذه الطبقة أواخرهم: أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي الذي توفي سنه (٣٠٣ هـ) ، وابنه أبو هاشم عبد السلام الجبائي[٦] ، وأحمد بن أبي دؤاد[٧] ، وعمرو بن بحر الجاحظ[٨] وبشر بن غياث المريسي وكان والده يهودياً بالكوفة. وقد هلك بشر سنة (٢١٨ هـ) ومن المشهورين من أواخرهم: الحسن بن موسى

---

(١) مكحول: عالم أهل الشام داره بطرف سوق الأحد أرسل عن عدة من الصحابة لم يدركم ، عداده في أوساط التابعين من أقران الزهري قال عنه هراس : صدوق يرى القدر ، وفاته ١١٢ هـ وقيل غير ذلك.

(٢) قتادة: حافظ العصر أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه كان رأساً بالعربية توفي (١١٧) هـ.

(٣) أبو الهذيل العلاف: من أئمة المعتزلة توفي بسامراء سنة (٢٣٥ هـ).

(٤) إبراهيم بن سيار النظام: انفرد بآراء خاصة تبعته فيها فرقته من المعتزلة سميت النظامية وقد كتب كثيراً في الفلسفة والاعتزال ، توفي (٢٣١ هـ).

(٥) بشر بن المعتمر: أبو سهل فقيه معتزلي مناظر من أهل الكوفة له مصنفات بالاعتزال توفي (٢١٠ هـ).

(٦) أبو هشام الجبائي: ابن أبي علي الجبائي خلف أبيه بعد أن أخذ عنه.

(٧) أحمد بن أبي دؤاد: الجهمي عدو أحمد بن حنبل كان داعية لخلق القرآن ، ولد سنة ١٦٠ بالبصرة وكان شاعراً ، توفي ٢٤٠ هـ ودفن بداره بالعراق.

(٨) عمرو بن بحر الجاحظ: كان من فضلاء المعتزلة وكان أيام المعتصم والمتوكل توفي سنة ٢٥٠ هـ ويقال سنة ٢٥٥.

النوبختي[1] وهو من أعلام الشيعة الإمامية ، والقاضي عبد الجبار[2] بن أحمد الهمداني ، وإسماعيل بن حماد الجوهري[3] ، الإمام اللغوي صاحب الصحاح.

والشريف المرتضى[4] علي بن الحسين الموسوي وهو من أعيان الشيعة الإمامية.

والمعتزلة أول مدرسةٍ كلاميةٍ هذبت الكلام والفلسفة وعلوم اليونان والإغريق ، وجعلت الأصول العقلية والفلسفيات الكلامية وقضت بها على العقائد الإسلامية والأصول الدينية. وهي التي أسست القواعد الكلامية والأصول العقلية والفكرية وأدخلوا النزعة العقلية في الدين الإسلامي وأحاطوا نزعتهم هذه بالقدسية والتقديم للعقل ودوره وصانوا هذه النزعة بكل ما أوتوا من قوةٍ في الجدل والحجاج والتبيان والمنطق ، وكذلك بالقوة والسنان والسلطة لما دانت لهم الدولة والسلطة.

ولقد أخذ المعتزلة واقتبسوا من أصول الديانات الأخرى وأهل الملل بعد أن دخل كثير منهم في الإسلام بعد الفتوح ومن اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الملل[5] والنحل[6] ، خاصةً بعد أن ترجمت مصنفات كثير منهم إلى اللغة العربية وخاصةً كتب اليونان والهند وغيرها من كتب الفلسفة والمنطق والكلام والتصوف.

فالقول بخلق القرآن نشرها الجهم بن صفوان وكان مع ذلك جبرياً لا يثبت للعبد فعلاً ولا قدرةً على الفعل أصلاً ، ويقول بنفي الصفات وفناء الجنة والنار ، وأوجب المعارف بالعقل قبل ورود الشرع. وقد أخذ مقالته عن شيخه الجعد بن درهم الذي أظهر مقالته في زمن هشام بن عبد الملك. يقول عنه الإمام الذهبي رحمه الله: « عداده في التابعين ، مبتدعٌ ضالٌ زعم أنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، قُتل بالعراق يوم النحر ...» وجعدٌ هذا أخذ مذهبه عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ.

ذكر ابن الأثير[7] رحمه الله ، أن أول من نشر القول بخلق القرآن هو لبيد بن الأعصم ، عدو النبي ﷺ الذي كان يقول بخلق التوراة ، ثم أخذها عنه ابن أخته طالوت ، وصنّف في خلق القرآن ، فكان أول من فعل ذلك في الإسلام ، وكان طالوت هذا زنديقاً فأفشى الزندقة.

وذكر الخطيب البغدادي[8] أن بشراً المريسي المعتزلي- وكان أحد كبار الدعاة إلى القول بخلق القرآن- كان أبوه يهودياً ، صبّاغاً في الكوفة.

---

(١) الحسن بن موسى النوبختي: أبو محمد عارف بالفلسفة كانت تنازعه الشيعة والمعتزلة.

(٢) القاضي عبدالجبار: أحمد عبدالجبار بن أحمد الهمداني القاضي المتكلم كان من غلاة الشيعة وكان فقيهاً شافعياً في الفروع معتزلياً في الأصول توفي ٤١٥ هـ.

(٣) الجوهري: إمام اللغة أبو نصر إسماعيل بن حماد وكان يضرب المثل في ضبط اللغة مات مترديا من سطح داره بنيسابور سنة ٣٩٣ هـ وقيل ٤٠٠ هـ.

(٤) الشريف المرتضى الموسوي : محمد بن أحمد الحسين بن موسى الحسيني.

(٥) الملل: جمع ملة وهي الشريعة والدين.

(٦) النحل: جمع نحلة وهي الدعوى والديانة ومنه الانتحال وهو ادعاء ما لا أصل له.

(٧) ابن الأثير: محي الدين أبي السعادات المبارك محمد الجزري ولد سنة ٥٤٤ توفي ٦٠٦ هـ .

(٨) الخطيب البغدادي: أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد واشتهر بالخطيب البغدادي ولد سنة ٣٩٢ وتوفي ٤٦٣ هـ.

والقول بالقدر ونفيه فالمشهور أن أول من تكلم به هو معبد بن عبد الله الجهني ، وقد أخذه عن النصراني سوسن – وقيل أبي يونس[1] – وكان نصرانياً ثم زعم أنه أسلم ثم عاد إلى النصرانية. ثم نشرها غيلان الدمشقي الذي أخذ المقالة عن معبد بعد أن يسر الله قتله وصلبه على يد الحجاج ، وقيل صلبه عبد الملك بن مروان ، وأما غيلان الدمشقي فقد نشر القول بنفي القدر ، وكان قبطاً زعم أنه دخل الإسلام ، وقد يسر الله تعالى قتله على يد هشام بن عبد الملك بعد أن قطعت يداه ورجلاه ثم صلب.

فالجهمية أخذوا مقالتهم عن اليهود ، أو تنتهي سلسلتهم إلى اليهود ، والقدرية النفاة تنتهي سلسلتهم الخبيثة إلى النصارى. ولقد ذهبت الجهمية ، وانقرضت القدرية ، ولكن تعاليمها محفوظةٌ في دواوين المعتزلة الذين أخذوا تلك المقالات وشرحوها وتوسعوا فيها. فالمعتزلة ورثة الجهمية والقدرية.

لقد ظهرت المعتزلة في أواخر العصر الأموي ، ولكنهم أدركوا ورأوا مصير من سبقهم من القدرية وغيرهم ، وكيف تعرضوا لنقمة الخلفاء الأمويين ، وأيقنوا أنه لا بقاء لهم إلا بالتقرب من السلطة ، والاستعانة بهم ، واستمالتهم إلى مقالاتهم.

لذلك دأبوا وعملوا لذلك حتى التقوا حول اليزيد بن الوليد بن عبد الملك[2] الذي اعتنق الاعتزال ، ودعا الناس إلى القول بالقدر وبقية أصولهم الخمسة. والتفوا كذلك حول مروان بن محمد – أخر ملوكهم – وكان يلقب بالجعدي لأنه تتلمذ على الجعد وأخذ منه القول بخلق القرآن ونفي القدر.

ورفع المعتزلة رؤوسهم أيام دولة بني العباس ، خاصة أيام أبي جعفر المنصور[3] ثاني خلفاء بني العباس؛ وذلك أن عمرو بن عبيد كان صديقاً له قبل تولي الخلافة. ولكن خبت نارهم أيام المهدي ابن المنصور[4] لأنه كان شديداً على الزنادقة وعلى المخالفين ، وقد اجتهد في طلبهم وإنزال العقوبة بهم. ثم أيام الرشيد[5] تمهدت لهم السبل فأخذوا يرفعون رؤوسهم ويُظهرون مقالاتهم لما رأوا من تقريب الرشيد لهم في مجالسه ، وفي تعليم أبنائه.

ولكن ظل المعتزلة متحفظون في نشر وإشاعة آرائهم لما رأوا أيضاً من شدة الرشيد في أمور الدين والذب عن السنة. وفي خلافة الأمين قل نفوذهم ، فقد كان رحمه الله أشد من أبيه في الذب عن الدين الحق ونصرة أهله، فقد ذكر ابن القيم رحمه الله عن الأمين[6] هذا الخلق وأنه أَبْعَدَ وأقصى الجهمية والمخالفين وتتبعهم بالحبس والقتل ، وإنزال

---

(١) أبو يونس: الأسواري هو من الأساورة النصارى وسنسويه ويعرف بالأسوار.

(٢) اليزيد بن عبد الملك: أبو خالد القريشي الأموي الدمشقي ولد سنة ٧١ هـ كان لا يصلح للإمامة مات ١٠٥ هـ.

(٣) أبو جعفر المنصور ولد سنة ٩٥ وكان محل بني العباس هيبة وشجاعة كان فيه ظلم وقسوة مات سنة ١٥٨ هـ.

(٤) المهدي بن منصور: الخليفة أبو عبد الله محمد بن المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي الهاشمي ولد سنة ٢٧ هـ وكان محباً للرعية تملك عشر سنين عاش ٤٣ سنة مات سنة ١٦٩ هـ.

(٥) الرشيد: الخليفة أبو جعفر هارون استخلف بعهده معقود له بعد الهادي كان من أنبل الخلفاء وأهم الملوك مات غازيا بخرسان وذلك سنة ١٩٣ هـ.

(٦) الأمين محمد بن الرشيد هارون عقد له أبوه بالخلافة بعده عاش ٢٧ سنة قتل في المحرم سنة ١٩٨ وخلافته دون خمس سنين سامحه الله وغفر له.

العقاب بهم ، فاستمروا في حالة الاضطهاد حتى قتل الأمين وخلفه بعد أخوه المأمون فابتسمت لهم الأيام، ودان لهم السلطان حتى انتهى إليهم الأمر ، فقد كان المأمون يعتبر من علماء أهل الاعتزال ، فشايعهم وقربهم ونصبهم وأعطاهم ما يسر لهم إظهار أفكارهم وإشاعة أصولهم ، وأمر بعقد المناظرات بينهم وبين الفقهاء لحمل الناس على الاعتزال ، ثم اتسمت مناظراتهم أو انتقلت إلى طور آخر وهو التهديد والوعيد ، ثم إنزال العقاب والنكال بالمخالف وبمن لا يوافقهم. وكان يتولى كبر تلك الفتنة والمحنة التي نزلت بالإسلام وأهله قاضي قضاة المأمون أحمد ابن أبي دؤاد الذي حاول حمل الفقهاء والأعلام من أهل السنة على القول بخلق القرآن وتعطيل الصفات عن الباري جل وعلا. وأجابه بعض العلماء تقيةً ورهبةً دون إيمانٍ ولا اعتقادٍ لما رأوا من القتل والتعذيب والحبس وغير ذلك وتحمل آخرون ألوان العذاب والنكال والحبس الطويل. واستمرت تلك الفتنة حتى أيام المعتصم[١] والواثق[٢] عملاً منهما بوصية المأمون.

ثم جاء المتوكل[٣] فرفع المحنة وأظهر السنة وقمع البدعة وتنفس أهل الحق ، وأظهروا السنة وحاربوا البدعة وأهلها وصنفوا في الرد على المعتزلة المعطلة القدرية.

وإن من أعظم أسباب سقوطهم الفكري غلوهم وإسرافهم في تقديس العقل وتقديمه ، ثم تشددهم تجاه المخالفين لهم. يقول الجاحظ[٤]مثلاً: فما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، وحملهم هذا المنهج على الابتعاد عن المنهج الحق ، وعن نور الوحي ، وعلى الاعتماد على العقل كليّاً حتى في الأمور الغيبية. ثم حملهم على الازدراء بغيرهم وخاصةً أهل النقل والحديث والسنن فصاروا يرمونهم بالجهالة ويلقبونهم بالحشوية[٥] وغيرها من الألقاب والأوصاف القبيحة؛ ليصدوا الناس عنهم وليروج باطلهم. وتطرفوا وغلوا في ذلك غلوّاً عظيماً أخرجهم عن العدل والحق والإنصاف ، وأعماهم عن الهدى والنور.

ومن أسباب سقوطهم أيضاً ما عاملوا به غيرهم ممن يخالفهم بأساليب العنف والبطش لفرض آرائهم وأفكارهم وأصولهم ، مما حملهم على اضطهاد أهل الحق ، وأقاموا محاكم الامتحان وسخّروا لذلك أجهزة وإمكانيات الدولة أيام المأمون والمعتصم والواثق مما جعل العامّة قبل الخاصّة يتذمرون من تلك السياسة وذلك القمع في المسائل

---

(١) المعتصم: أبو إسحاق محمد بن الرشيد هارون بن محمد المهدي بن المنصور العباسي امتحن الناس بخلق القرآن.

(٢) ابن المعتصم ولد سنة ١٦٩ هـ وكان وافر الأدب ، قال الخطيب : استولى أحمد بن أبي دؤاد على الواثق وحمله على التشدد في المحنة والدعاء بخلق القرآن وقيل أنه رجع عن ذلك قبل موته وكانت خلافته خمس سنين ونصف مات بسامراء.

(٣) المتوكل: أبو الفضل جعفر بن المعتصم ولد سنة ٢٠٥ هـ أظهر السنة وتكلم بها في مجلسه وكتب بالاتفاق برفع المحنة.

(٤) الجاحظ: عمرو بن الجاحظ كان من فضلاء المعتزلة وكان في أيام المعتصم والمتوكل توفي سنة ٢٠٥ هـ وقيل سنة ٢٥٥ هـ.

(٥) الحشوي: قال ابن القيم رحمة الله : «المعطلة يعنون بقولهم حشوية: أن المثبتة حشو في الوجود وفضله في الناس، وجهالهم يظنون أن معنى الحشو أنهم بقولهم إن الله سبحانه في السماء وفوق خلقه قد حشوا رب العباد بالأكوان» توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم(٢/ ٧٧).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معنى الحشوية: «أي الذين هم حشو في الناس ليسوا من المتأهلين عندهم». مجموع الفتاوى (١٢/ ١٧٦).
وقال: «ويذكر أن أول من تكلَّم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد وقال: كان عبدالله بن عمر حشوياً» المرجع السابق (١٢/ ١٧٧).

الدينية. وهذا ما شعر به المتوكل فأصدر الأمر بترك وإيقاف المناظرات، والمحاكم، والجدال، ثم أمر شيوخ أهل الحديث والسنة بالتحديث وإظهار السنن والحق ، وكتب أمره ذلك إلى الآفاق في الدولة العباسية ، ففرح المؤمنون بذلك ودعوا له وبالغوا في الثناء عليه.

وقد استخلف المأمون (عبد الله بن هارون الرشيد ١٨٩ - ٢١٨هـ) ، والمعتصم (محمد بن هارون بن الرشيد ٢١٨ – ٢٢٧ هـ) ، والواثق(هارون بن محمد بن هارون بن الرشيد ٢٢٨ - ٢٣٢ هـ) ، والمتوكل (جعفر بن محمد بن هارون بن الرشيد ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) .

وقد أمر المأمون والي بغداد بجمع القضاة والعلماء وامتحانهم في خلق القرآن وعزل من لا يقول به:

« إن خليفة المسلمين واجبٌ عليه حفظ الدين وإقامته بالحق في الرعية. وإن القائلين بقدم القرآن والمنكرين لخلقه شر الأمة ورؤس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد ... ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد ».

أجاب المحدثون والعلماء بعد التشديد عليهم وبعد أمره بضرب أعناق التوحيد.

بقي الإمام أحمد ومحمد بن نوح[١] ، فحملا بالقيود والحديد لمواجهة ومقابلة المأمون الذي أهلكه الله، وهما في الطريق إليه ، فأعيدا إلى بغداد ، ومات ابن نوح في الطريق من شدة وقسوة المعاملة وثقل القيود والحديد عليه ، وسجن الإمام أحمد في بغداد.

وكان المعتصم يشفق على الإمام أحمد أثناء ضربه وسجنه ويقول له: « علام تقتل نفسك ، إني والله لشفيق عليك ويحك أحمد ، أجبني حتى أطلق عنك بيدي » وهو يجيب: « أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ».

وذلك لأن المأمون قد أوصى أخاه بالجد في مسألة الامتحان وحمل الناس عليه. ثم جاء الواثق وسار بسيرتهما واشتد على أهل الإسلام حتى ساوره الملل ولعله تمنى لو استطاع الخروج من المحنة. وقد امتحن الواثق بنفسه أحمد بن نصر الخزاعي[٢] الذي صبر وأظهر السنة فقام وقتله بنفسه ثم صلبه في سامراء[٣] وحمل رأسه إلى بغداد وعلق في أذنه رقعةً فيها:

«هذا رأس الكافر المشرك الضال ... قتله أمير المؤمنين بعد إقامة الحجة عليه في خلق القرآن ونفي التشبيه ،

---

(١) محمد بن نوح: إمام حافظ ثبت قال عنه الدارقطني : « ثقة مأمون » توفي ٣٢١ هـ.

(٢) أحمد بن نصر: أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي أبو عبد الله روى عن مالك وابن عيينة قتله الواثق بيده سنة ٢٣١ هـ لامتناعه عن القول بخلق القرآن.

(٣) سامراء: كلمة آرامية. وجاء في معجم البلدان (٢/ ٤١٨): «لغة في سرَ من رأى، مدينة كانت بين بغداد وتكريت على رقي دجلة وقد خربت. وفيها لغات: سامراء ممدود، وسامرا مقصور، وسر من رأ مهموز، وسُرَ من را مقصور... وقيل أصلها: سرَ من رأى فخففها الناس وقالوا: سامراء».

وجاء في اللسان (١٤/ ٢٩١): «سامراء المدينة التي بناها المعتصم وفيها لغات: سُرَّ من رأى، وسَّرَ من رأى، وساء من رأى، وسامرا... وسُرَّ من راء... ومن قال: سامراء فإنه أخر همزة رأى فجعلها بعد الألف فصار سا من راء ثم أدغم النون في الراء».

وعرض عليه التوبة ، ومكنه من الرجوع إلى الحق ، فأبى إلا المعاندة والتصريح ، والحمد لله الذي عجل به إلى ناره وأليم عقابه ، وإن أمير المؤمنين سأله في ذلك ، فأقر بالتشبيه وتكلم بالكفر ، فاستحل أمير المؤمنين دمه ولعنه».

وأمر بسجن يوسف بن يحيى البويطي[1] أكبر أصحاب الإمام الشافعي بعد أن حمل إليه من مصر ، وقد مات رحمه الله في السجن سنة (٢٣١ هـ).

ومما أثر في المتوكل بعد أخيه الواثق في إنهاء المحنة ، وتغير رأيه، قتل الإمام العالم أحمد بن نصر الخزاعي لأنه حضره وشاهده. لما ضربه الواثق بسيفه عدة ضربات وهو في وثاقه رحمه الله.

وقد كان من أكابر العلماء العالمين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أثنى عليه الإمام أحمد. وقد سمعه الحاضرون يردد لا إله إلا الله أثناء طعنه وضربه وسقوطه. تغمده الله تعالى برحمته وأجزل مثوبته.

ولما دخل عبد العزيز الكناني[1] على المتوكل ذكرهم بقتل الإمام أحمد بن نصر ففزع المتوكل لذلك فزعاً شديداً ، ولعله رحمه وتأثر وكان يردد ما رآه فدخل عليه من الوزراء والقضاة من حاول أن يطمئنه لما حدث.

فمما قاله الوزير محمد بن عبد الملك[2] : أحرقني الله بالنار إنْ قتله أمير المؤمنين إلا كافراً.

وقال قاضي القضاة ابن أبي دؤاد: ضربني الله بالفالج إنْ قتله الواثق إلا كافراً.

وقال هرثمة ، من أعلامهم القضاة: قطعني الله إرباً إرباً إنْ قتله أمير المؤمنين إلا كافراً.

ويقول المتوكل: «أما ابن الزيات[3] فأنا أحرقته بالنار ، وأما هرثمة فهرب ودخل في خزاعة فعرفه بعضهم ، فانتصروا لابن عمهم أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله فقطعوه إرباً إرباً».

وأما ابن أبي دؤاد فقد سجنه الله في جلده بالفالج أربع سنين قبل موته.

يقول ابن كثير في وصف المحنة: « ووقعت فتنة صماء ، ومحنة شنعاء ، وداهية دهياء ، فلا حول ولا وقوة إلا بالله».

* * *

(١) يوسف بن يحيى البويطي: عالم من علماء الشافعية وهو تلميذ الشافعي رحمه الله.

(١) عبد العزيز الكناني: أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي جرى بينه وبين بشر المريسي مناظرة في صحتها نظر.

(٢) محمد بن عبد الملك : القاضي كمال الدين أبو حامد محمد ابن قاضي القضاة ولد سنة ٥٧٦ هـ جالس الملوك توفي ٦٥٩ هـ.

(٣) ابن الزيات: العلامة الوزير أبو جعفر بن عبد الملك بن أبان الزيات كان والده زياتا ووزيراً للمعتصم وللواثق ، كان يقول بخلق القرآن ، توفي ٢٣٣ هـ.

المبادئ العامة للمعتزلة

شأن أصول أهل البدع ، فإن للمعتزلة مبادئَ وآراءً وأصولاً يكادون يشتركون فيها على اختلافهم وتفرقهم في اعتزالهم ، وكذلك لهم مبادئ ومسائل خاصّة ببعض زعمائهم وأساطينهم.

والأصول العامة التي يشتركون ويجمعون عليها على وجه التقريب هي: التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول أبو الحسن الخياط في كتابه الانتصار- وهو أحد أئمتهم وعلمائهم في القرن الثالث الهجري- مبيناً عقائدهم ومذهبهم:

«أما جملة قول المعتزلة الذي يشتمل على جماعتها ، فليس يمكنك الطعن فيه ولا عيبه ما كنت مظهراً لدين الإسلام؛ لأن الأمة بأسرها تصدق المعتزلة في أصولها التي تعتقدها وتدين بها ، وهو أن الله واحدٌ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ، ولا تحيط به الأقطار، وأنه لا يحول ولا يزول ولا يتغير ولا ينتقل وأنه ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد: ٣] ، وأنه ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤] ، وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد ، وأنه القديم وما سواه محدث ، وأنه العدل في قضائه ، الرحيم بخلقه ، الناظر لعباده ، وأنه لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يريد ظلماً للعالمين. وأن خير الخلق أطوعهم له ، وأنه الصادق في أخباره ، الموفي بوعده ووعيده ، وأن الجنة دار المتقين ، والنار دار الفاسقين...

... وليس يستحق أحدٌ منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا كملت في الإنسان هذه الصفات فهو معتزلي » .

وذكر الشهرستاني رحمه الله في الملل والنحل: "والذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد: القول بأن الله تعالى قديمٌ ، والقدم أخص وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة أصلاً ، فقالوا: هو عالمٌ بذاته ، قادرٌ حيٌّ بذاته ، لا بعلمٍ وقدرةٍ وحياةٍ ... لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية.

واتفقوا على أن كلامه محدثٌ مخلوقٌ في محل ، وهو حرفٌ وصوتٌ كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه.

واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونفي التشبيه عنه من كل وجه: جهة ومكاناً ، وصورةً ، وجسماً ، وتميزاً ، وانتقالاً ، وزوالاً ، وتغيراً ، وتأثيراً ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهات فيها ، وسموا ذلك توحيداً.

واتفقوا على أن العبد قادرٌ خالقٌ لأفعاله خيرها وشرها ، مستحقٌ على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة ، والرب تعالى منزهٌ عن أن يُضاف إليه شرٌ وظلمٌ ، وكفرٌ ومعصيةٌ؛ لأنه لو خلق الظلم لكان ظالماً ، كما لو خلق العدل لكان عادلاً.

واتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير ، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد. وأما الأصلح والألطف ففي وجوبه عندهم خلافٌ ، وسموا هذا النمط: [عدلاً].

واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعةٍ وتوبةٍ ، استحق الثواب والعوض ، والتفضل معنى آخر وراء الثواب، وإذا خرج من غير توبةٍ عن كبيرةٍ ارتكبها ، استحق الخلود في النار ، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار ، وسموا هذا النمط: وعداً ووعيداً.

ومما اشتهر عن جمهورهم القول في أصحاب الجمل وصفين قولهم:إن أحدهما مخطئ لا بعينه، وكذلك القول في عثمان ﷺ وقاتليه وخاذليه: إن أحد الفريقين فاسق لا محالة. واشتهر هذا القول عن واصل بن عطاء ولم يعلم له مخالف إلا قليل منهم. وأما عمرو بن عبيد فقد وافقه وزاد عليه في تفسيق أحد الفريقين لا بعينه.

واشتهر المعتزلة أيضاً بقولهم في إعجاز القرآن أنه من حيث صرف الدواعي والهمم على فعل المعارضة. وصاحب هذا القول هو إبراهيم بن سيار النظام المتوفى سنة (٢٣١ هـ) وقيل قبل ذلك. ولم يعلم له مخالف ، وقد اشتهر بمطالعة كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة. ثم هو مشهورٌ بميله الشديد إلى الرفض والتشيع بالوقيعة الشديدة في الصحابة وبقوله: لا إمامة إلا بالنص والتعيين ظاهراً مكشوفاً ، وقد نص النبي ﷺ على علي في مواضع ، وأظهره إظهاراً لم يشتبه على الجماعة إلا أن عمر كتم ذلك ، وهو الذي تولى بيعة أبي بكر يوم السقيفة. كما نسب عمر إلى الشك والتردد في دينه لقوله يوم الحديبية: ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ ... فلم نعط الدنية في ديننا؟ وطعن في عثمان ﷺ كثيراً.

واشتهر المعتزلة بأن أهل النار لا يخلدون فيها عذاباً وتألماً ، بل يصيرون إلى طبيعة النار. قاله أولاً عمرو بن بحر الجاحظ وكان من فضلائهم ، وقد اشتهر بمطالعة كتب الفلاسفة وبخلط وترويج الكثير من مقالاتهم في مذهب المعتزلة بعباراته البليغة وحسن براعته في التصنيف ، وكان في أيام المعتصم والواثق والمتوكل.

واشتهر كلام شيوخ المعتزلة البغداديين في النبوة والإمامة بالميل إلى الرفض ومقالات الرافضة ، وخالفهم شيوخ المعتزلة البصريين كالجبائي، وأبي هاشم ابنه فقد وافقا أهل السنة في الإمامة وأنها بالاختيار وأن الصحابة مترتبون في الفضل ترتبهم في الإمامة. ومن أشهر معتزلة البصرة عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، وإبراهيم النظام ، والجاحظ ، وأبو علي الجبائي، وابنه أبو هاشم. وأما البغداديون فمن أشهرهم: بشر بن المعتمر ، ثمامة بن الأشرس ، أحمد بن أبي دؤاد وغيرهم.

الأصول الخمسة للمعتزلة

الأصل الأول : التوحيد

هذا الأصل يدور حول ما يُثبت لله وما يُنفى عنه من الصفات ، وتنزيهه جل وعلا عن مشابهة المخلوقين.

يقول القاضي عبد الجبار بن أحمد المتوفى سنة (٤١٥ هـ) في كتابه شرح الأصول الخمسة : «هو العلم بأن الله تعالى واحدٌ لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفياً أو إثباتاً على الحد الذي يستحقه ، والإقرار به ، ولابد من اعتبار هذين الشرطين : العلم والإقرار جميعاً لأنه لو علم ولم يقر ، أو أقر ولم يعلم لم يكن موحداً ».

ونحن نعلم أن في القرآن الكريم آياتٍ تثبت صفات الله تعالى كصفة القدرة، والعلم ، والإرادة ، وكل اسمٍ من أسماء الله يدل على صفةٍ من صفاته ، ونعلم أيضاً أن الصحابة ومن جاء بعدهم ممن تابعهم بإحسانٍ على ما كانوا عليه ، كانوا يعتقدون هذه الصفات ، وما علمنا أن أحداً من الصحابة سأل رسول الله ﷺ عن كنهه وحقيقة صفةٍ من هذه الصفات على اختلاف طبقاتهم في العلم والفهم ، فهم جميعاً قرؤوا القرآن وسمعوه وفهموا مراد الله ومراد رسوله ، وسكتوا عما وراء ذلك رضي الله عنهم.

ونعلم أن أول من تكلم في الصفات في الإسلام هو الجعد بن درهم ، نفاها وزعم أن القرآن مخلوقٌ ، ثم أخذها عنه الجهم بن صفوان ونشرها ، ولقد أنكر أئمة الإسلام وعلماء أهل السنة هذا القول ، وحكموا ببدعته ، وحذروا الناس منها وصنفوا في الرد والإنكار.

ونعلم أن المعتزلة قد أخذوا مقالة المعطلة الجهمية الجعدية ، فواصل بن عطاء كان ينفي الصفات معتقداً أن إثباتها يؤدي إلى تعدد القدماء وذلك شركٌ بقوله : « إن من أثبت لله معنى الصفات وصفةً قديمةً فقد أثبت إلـٰـهين » .

ثم جاءت المعتزلة وبعد حركة الترجمة للكتب اليونانية والفارسية وغيرها أضافوا أقوال الفلاسفة إلى اعتزالهم ومذهبهم ، فقالوا بنفي صفات الباري جل وعلا وقالوا : إنه تعالى عالمٌ بذاته لا يعلم زائدٌ على ذاته.

يقول أبو الحسين الخياط[1] : «إن الله تعالى لو كان عالماً بعلمٍ ، فإما أن يكون ذلك العلم قديماً أو يكون محدثاً ، ولا يمكن أن يكون قديماً ؛ لأن هذا يوجب وجود اثنين قديمين ، وهو تعددٌ وقولٌ فاسدٌ ، ولا يمكن أن يكون محدثاً ؛ لأنه لو كان كذلك يكون قد أحدثه الله إما في نفسه أو في غيره أو لا في محل ، فإن كان أحدثه في نفسه أصبح محلاً للحوادث ، وما كان محلاً للحوادث فهو حادثٌ ، وهذا محالٌ ، وإذا أحدثه في غيره كان ذلك الغير عالماً بما حله منه دونه كما أن من حله اللون فهو المتلون به دون غيره ، ولا يُعقل أن يكون أحدثه لا في محل ، لأن العلم عرضي لا يقوم إلا في جسم ، فلا يبقى إلا حالٌ واحدٌ ، وهو أن الله عالمٌ بذاته » من كتاب الانتصار.

فهذه هي شبهة المعتزلة وتعطيل صفات الباري جل وعلا ، وهذا هو حقيقة توحيدهم الذي يدعون إليه وجعلوه أول أصولهم.

---

(١) أبو الحسين الخياط : عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط كان فقيهاً صاحب حديث واسع الحفظ لمذاهب المتكلمين ت : ٣٠٠هـ

والجواب على هذه الشبهة: أن القول بأن العلم القديم يوجب تعدد القدماء فيه إجمالٌ يُسأل عنه قائله ، فإن أراد بالعلم القديم أنه معنىً قائمٌ بنفسه مستقلٌ عنه موصوفه ، فصفة العلم ليست قديمةٌ بهذا الاعتبار ، بل هي صفةٌ للقديم.

وإن أراد بقوله أنه قديمٌ (أي الصفة) لأنه لا ابتداء له ، ولم يسبقه عدمٌ مطلقٌ ، فصفة العلم قديمةٌ بقدم موصوفها ، وإذا كان قدمها تابعاً لقدم موصوفها ، فليس هناك تعدد قدماء كما تزعمون بل هناك قديمٌ أزليٌّ وصفته أو صفاته.

فالمعتزلة يُجمعون على نفي إثبات صفاتٍ حقيقيةٍ في ذات الله تعالى ، وتميزها عن الذات وأما أهل السنة فمذهبهم: إجراء الصفات على ظاهرها ، ونفي الكيفية عنها؛ لأن الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات ، وإثبات الذات إثبات وجودٍ لا إثبات كيفيةٍ ، وكذلك إثبات الصفات من غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ ، ولا تحريفٍ ولا تعطيلٍ ، إثباتٌ بلا تشبيهٍ ، وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ على مقتضى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ ردٌّ على أهل التشبيه والتمثيل ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ردٌّ على أهل الإلحاد والتعطيل.

الأصل الثاني : العدل

يدور هذا الأصل ويبحث في أفعال الله تبارك وتعالى ، يقول القاضي عبد الجبار: وأما الأصل الثاني من الأصول الخمسة ، وهو الكلام في العدل ، وهو كلامٌ يرجع إلى أفعال القديم تعالى ، وما يجوز عليه ، ومالا يجوز؛ فلذلك أوجبنا تأخير الكلام في العدل عن الكلام في التوحيد « لأنه متفرعٌ عن إثبات وجود الله والإيمان به وصفاته » .

ويعنون بالعدل أن أفعال الله كلها حسنةٌ ، وأنه لا يفعل القبيح ، ولا يبخل بما هو واجبٌ عليه من العدل ، فهو تعالى لا يظلم ولا يحب الفساد ، وينزهون الله تعالى عن كل قبيحٍ حتى نفوا أن يكون الله خالقاً لأفعال العباد لما فيها من القبيح والشرِّ والظلم مستدلين بقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ، وبقوله : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ ﴾ [الزمر : ٧] ، وبقوله : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٣١] ، وبأدلةٍ عقليةٍ كما ذكر القاضي عبد الجبار: « إن إرادة القبيح قبيحةٌ » ؛ ولأنه لو كان مريداً للمعاصي لوجب أن يكون حاصلاً على صفةٍ من صفات النقص ، وذلك لا يجوز على الله تعالى ، ومن ثم يرتبون على ذلك أن العبد هو الخالق لأفعاله تنزيهاً عن نسبة القبح إلى الله تعالى.

ونحن نعلم ونؤمن أن أفعاله سبحانه وتعالى كلها حسنةٌ ، خلقه وفعله وقضاؤه وقدره كله خير؛ ولهذا نزه الله تعالى نفسه عن الظلم في مواضع ، ونزهه كذلك رسوله ﷺ ، ونعلم أن حقيقة الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، فهو جل وعلا لا يضع الأشياء إلا في محلها اللائق بها ، وذلك خيرٌ كله ، وهو سبحانه وتعالى منزهٌ عن كل شرٍّ ونقصٍ وعيبٍ ، وذلك مقتضى اسم: القدوس.

وأما قول المعتزلة: إن العباد خالقين لأفعالهم؛ لأن منها القبيح ، ولو كان الله خالقاً لها ، لكان فاعلاً للقبيح ،

فهذا باطلٌ فالنتيجة التي رتبها المعتزلة على مقدماتهم فاسدةٌ ؛ لأن الله تعالى خالق كل شيءٍ ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الرعد: ١٦] ، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦].

وشبهتهم وهي نفي الظلم عن الله كما نصَّ على ذلك القاضي عبد الجبار بقوله : « وأحد ما يدل على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقاً لأفعال العباد ، وهو أن في أفعال العباد ما هو ظلمٌ وجورٌ فلو كان تعالى خالقاً لها لوجب أن يكون ظالماً جائراً للعباد تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً » .

فإن هذا الالتزام غير صحيحٍ ولأن كون الباري خالقاً لا يوجب أن يتصف بما خلق من الظلم والكذب وحتى الطاعة ؛ لأن هذه صفات من قام بها وقامت هي به كالألوان صفاتٌ لمن قامت به فالسواد مثلاً صفة من قام به ذلك اللون ، ولا يكون صفةً لله تعالى ، أو لصانع ذلك اللون ، ثم إن الظلم خلقه الله للظالم والكذب للكاذب كما خلق سبحانه وتعالى الظلمة لليل والضياء للنهار ولا يوجب ذلك وصفه بالظلمة والضياء.

وأهل السنة والجماعة يعتقدون عقيدةً جازمةً أن الله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وكلها تدل على الكمال والجمال والجلال ، وأن جميع أفعاله وخلقه وقضائه حسنٌ وخيرٌ كله ، وأن الشرَّ ليس إليه جل وعلا ، ثم إنهم لا يوجبون على الله تعالى شيئاً أو فعلاً ، بل هو الفاعل المختار ، لا يُسأل عما يفعل جل وعلا.

يقول ابن تيمية رحمه الله:

« وأما الإيجاب على الله سبحانه وتعالى والتحريم والقياس على خلقه ، فهذا قول القدرية وهو قولٌ مبتدعٌ ، وأهل السنة متفقون على أنَّ الله تعالى خالق كل شيء ، وأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنَّ العباد لا يوجبون عليه شيئاً ، ومَنْ قال مِنْ أهل السنة بالوجوب فإنه يقول : كتب على نفسه الرحمة ، وحرم الظلم على نفسه ، لا أن العبد مستحقٌ على الله شيئاً .... والحق الذي لعباده هو فضله وإحسانه ، لا مِنْ باب المعاوضة ، ولا مِنْ باب ما أوجبه غيرُه عليه ، فإنه سبحانه يتعالى عن ذلك ».

فأهل السنة لا يقولون بالوجوب على الله مطلقاً ، ولا ينفونه مطلقاً ، بل يُثبتون ما أوجبه الله على نفسه ، ويعتبرون ذلك باب فضلٍ ومنٍّ وكرمٍ منه سبحانه وتعالى.

الأصل الثالث : الوعد والوعيد

« الوعد هو كل خبرٍ يتضمن إيصال نفعٍ إلى الغير ، أو دفع ضرٍّ عنه سواءً كان ذلك الغير مستحقاً أو غير مستحق لذلك الخير ، وأما الوعيد فهو كل خبرٍ يتضمن إيصال ضرٍّ إلى الغير أو تفويت نفعٍ عنه ، سواء كان مستحقاً لذلك أو غير مستحق ، وسواء كان الوعد أو الوعيد حاضراً أو مستقبلاً.

ويقابل هذا: الكذب ويعرفونه بأنه كل خبرٍ له مخبرٌ وجاء مخالفاً للواقع والحال.

والخلف: أن يخبر عن فعلٍ سيفعله ، ثم لا يفعله، والخلف ربما يكون كذباً بأن يخبر عن نفس الفعل ثم لا

يفعله ، وربما لا يكون كذباً بأن يخبر عن عزمه على الفعل ثم لا يفعله ، ولما كان العزم مستحيلاً على الله تعالى ، لم يكن الخلف في حقه إلا كذباً ، تعالى الله عنه علوّاً كبيراً »[1].

ويقول القاضي عبد الجبار: «... وأما علوم الوعد والوعيد ، فهو: أن الله وعد المطيعين بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب ، وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة ، ولا يجوز عليه الخلف والكذب » .

ويقول أيضاً: « وأما الوعيد الوارد عن الله ، فإنه ليس بمقصورٍ تناوله على الكفار دون الفساق ، ولا على الكفر دون الفسق على حد ما حُكي عن بعض المرجئة مِنْ أنَّ الفاسق ليس بمَعْنِي بآيات الوعيد قطعاً...» .

واستدلوا على قولهم ومذهبهم بقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٠]، وقع أجره على الله: أي وجب ثوابه عليه إذ إنَّ حقيقة الوجوب الوقوع والسقوط ، وتعلقوا أيضاً بما قاله عبد الجبار: « اعلم أنه تعالى إذا كلفنا الأفعال الشاقّة ، فلا بد أن يكون في مقابلها من الثواب ما يقابله ...؛ لأنه لو لم يكن في مقابلة هذه الأفعال الشاقّة ما ذكرناه ، كأن يكون القديم تعالى ظالماً ».

واستدلوا أيضاً في جانب الوعيد بقول الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٨١] ، وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤]، يقول القاضي عبد الجبار: «إن المجرم اسم يتناول الكافر والفاسق جميعاً فيجب أن يكونا مرادين بالآية معنيين بالنار؛ لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبيّنه...» .

والجواب بإيجاز أن يُقال لهم: لا بد من إعمال نصوص الوعد والوعيد ، ولابد من جمع النصوص كلها ، فآيات الوعيد تتوجه للكافر والمشرك والعاصي ، فأما الوعيد الذي توعد الله به الكافرين والمشركين فإنهم سينالونه حتماً إن ماتوا على كفرهم وشركهم بدلالة قول الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨] ، أما الوعيد المتوجه للعصاة فإنهم إما أن يتوبوا فيتوب الله عليهم كما قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ ﴾ [الفرقان: ٧٠] ، وإما أن يموت على معصيته ، فإنه تحت مشيئة الله إن شاء عذبه على قدر معاصيه بمقتضى عدله ثم أدخله الجنة ، وإن شاء عفا عنه بشفاعة الشافعين أو بمقتضى عفوه ورحمته تبارك وتعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [النساء: ٤٨] ، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [الزمر: ٥٣] ، وقال عز وجل : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ، وقال النبي ﷺ : « **أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من**

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار.

إيمانٍ»[1] ، ثم إن خلف الوعيد لا يعتبر كذباً ولا قبيحاً ، قال عمرو بن عبيد لأبي عمرو بن العلاء- وهو أحد أئمة الأدب واللغة ، وأحد القراء السبعة المشهورين رحمه الله توفي سنة (١٥٤ هـ)- قال له عمرو: يا أبا عمرو: لا يخلف الله وعيده ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] ، فقال له أبو عمرو: ويحك يا أبا عثمان ، من العجمة أتيت ، إن العرب لا تعد إخلاف الوعيد ذمّاً بل جوداً وكرماً ، فقال عمرو بن عبيد: فأوجدني هذا فقال: أما سمعت قول الشاعر:

وإني وإن أوعدتـــــــه أو وعدتـــــــه لمخلـــف إيعـــادي ومنجـــز موعـــدي

ثم إن الوعيد من الله تعالى مشروطٌ بعدم العفو والمغفرة ، فلا يلزم منه الخلف والكذب بمعنى أن العذاب واقعٌ بهم إن لم يشملهم عفو الله تعالى ورحمته ومغفرته ، مع أن أهل العلم يحملون آيات الوعيد على معنى إنشاء الوعيد ، لا الإخبار به فهي بذلك لا تتصف بالصدق والكذب لأنها من صفات الخبر دون الإنشاء.

والحق الذي عليه أهل السنة أن العبد لا يستحق بنفسه على الله تعالى شيئاً وإنما هو فضل من الله تعالى، ويعتقدون ضرورة ثواب المطيعين كما وعد هو سبحانه فإنه لا يخلف وعده جل وعلا وقد سبق قول شيخ الإسلام في مسألة الإيجاب على الله تعالى.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

« فعليك في هذا الموضع .... لا يستوجب العبد على الله نجاةً ولا فلاحاً ، ولا يدخل أحدٌ الجنة بعمله أبداً ... والله تعالى بفضله وكرمه أكد إحسانه وجوده بأن أوجب لعبده حقاً بمقتضى الوعد ، فإن وعد الكريم إيجاب ولو بعسى ولعل ... »[2] .

وأما الوعيد، فيقول شيخ الإسلام رحمه الله أن أهل السنة قالوا: « يجوز أن يعفو الله عن المذنب وأن يخرج أهل الكبائر من النار فلا يخلد فيها من أهل التوحيد أحداً ».

ويقول ابن القيم رحمه الله: « هذا وعيدٌ وإخلاف الوعيد لا يُذم، بل يُمدح والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد، والفرق بينهما أن الوعيد حقه فإخلافه عفوٌ وهبةٌ وإسقاط ذلك الحق موجب كرمه وجوده وإحسانه...» .

الأصل الرابع : المنزلة بين المنزلتين

كان البدء في نشأة المعتزلة من هذا الأصل لّما ذهب واصل بن عطاء إلى رأيٍ خاصٍّ خالف به قول الإمام الحسن البصري التابعي الجليل رحمه الله ، فاعتزل بذلك مجلس أهل الحق ، وذلك لّما دخل رجلٌ على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين ، لقد ظهرت في زماننا جماعةٌ يُكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج من الملة ، وهم

(١) أخرجه البخاري وابن ماجه.

(٢) مدارج السالكين.

وعيدية الخوارج . وجماعةٌ يرجؤون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا اعتقاداً ؟ ففكر الحسن ، وبادر واصل بن عطاء بقوله: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلةٍ بين المنزلتين ، لا مؤمنٌ ولا كافرٌ ثم قام واعتزل.....

وأما الأصل في اصطلاح المعتزلة فيقول القاضي عبد الجبار: «هو العلم بأن صاحب الكبيرة اسمٌ بين الاسمين ، وحكمٌ بين حكمين» ويقول : « إن صاحب الكبيرة له اسمٌ بين الاسمين فلا يكون اسمه اسم الكافر ، ولا اسم المؤمن ، وإنما يُسمى فاسقاً ، وكذلك صاحب الكبيرة له حكم بين الحكمين...» .

فصاحب الكبيرة عندهم بين الإيمان والكفر اسماً وحكماً في الدنيا ، وأما إن مات بلا توبةٍ ، وخرج من الدنيا على كبيرته فإنه يخلد في النار ويعذب أبداً دون عذاب الكافرين.

وذلك لأن الإيمان عندهم عبارةٌ عن خصال خيرٍ إذا اجتمعت سُمي المرء مؤمناً ، وهو اسم مدحٍ ، والفاسق لم يستكمل خصال الخير ، فإذا خرج فهو من أهل النار خالداً فيها إذ ليس إلا فريقان: فريقٌ في الجنة ، وفريقٌ في السعير ، ولكن تخفف عنه النار، وشبهتهم عدم الجمع بين النصوص ، وعدم الإيمان باجتماع الإيمان والمعاصي في العبد الواحد ، واجتماع استحقاق الثواب والعقاب في الآخرة.

والجواب على شبهتهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ [البقرة: ١٧٨] ، سمى الله تعالى القاتل أخاً للمقتول ، وهي الأخوة الإيمانية ، وهذا دليلٌ على أن القتل وهي كبيرةٌ لم تخرجه من الإيمان ، ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ ... ﴾ [الحجرات: ٩] أطلق الله اسم الإيمان على الطائفتين المتقاتلين من أهل الإسلام.

«**ما من عبدٍ قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق**[1] **؟ قال: وإن زنى وسرق ... على رغم أنف أبي ذر**» رواه مسلم.

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله:

وأما قول القائل إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله ، فهذا ممنوعٌ ، وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان ، فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله ولم يبق منه شيء ، ثم قالت الخوارج والمعتزلة: هو مجموع ما أمر الله به ورسوله وهو الإيمان المطلق ، فإذا ذهب شيءٌ منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيءٌ منه فخلد في النار.

وقالت المرجئة: لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئاً من الإيمان ، إذ لو ذهب شيءُ منه لم يبق منه شيءٌ...

والنصوص الشرعية وأقوال الصحابة تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه؛ لذلك يرى أهل السنة أن الناس يتفاضلون في الإيمان وأنه يزيد وينقص بلا مخالف لهم منهم رضي الله عنهم ورحمهم الله.

---

(١) رواه البخاري وأحمد والترمذي.

ومرتكب الكبيرة مؤمنٌ بإيمانه ، فاسقٌ بكبيرته ناقص الإيمان على قدر معاصيه ، إذ لو كانت الكبيرة كفراً تنقل عن الملة لكان مرتداً يُقتل في الحال ، ولا يُقبل فيه عفو ولي القصاص ، ولا تجرى عليه الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وهذا القول معلومٌ بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

الأصل الخامس : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المعروف كما يُعرفه المعتزلة هو: الفعل الحسن الذي يفعله فاعله وهو عارفٌ حسنه أو أنه يدلل على حسنه ، والمنكر هو: كل فعلٍ عرف فاعله قبحه أو دل عليه.

وهذا الأصل من أخطر الأصول عند المعتزلة؛ لأنه يتضمن إعمال السيف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين لا تنفع الوسائل الأخرى بزعمهم ؛ لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقلب واللسان واليد ، فلابد من السيف لتقويم المعوج في الأمة بحجة نشر المعروف والدعوة والدين وهداية الظالمين وإرشاد الغاوين ، ولا فرق بين مجاهدة الكافرين والفاسقين.

يقول القاضي عبد الجبار: «اعلم أنه لا خلاف في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واعلم أن المقصود في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أن لا يضيع المعروف ولا يقع المنكر ، فإذا ارتفع هذا الغرض ببعض المكلفين سقط عن الباقين؛ فلهذا قلنا : إنه من فروض الكفايات».

ويقول الزمخشري[1] : «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات» ويستدلون بالكتاب والسنة والإجماع:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

[آل عمران: ١٠٤]

يقول الزمخشري: «ولتكن منكم أمة» للتبعيض.

ويقول القاضي: «واعلم أن المقصود بالأمر بالمعروف إيقاع المعروف ، والنهي عن المنكر زوال المنكر فإذا ارتفع الغرض بالأمر السهل لم يجز العدول عنه إلى الأمر الأصعب».

ويقول الزمخشري: « ... وعليه أن يباشر الإنكار بالسهل ، فإن لم ينفع ارتقى إلى الصعب؛ لأن الغرض هو إزالة المنكر» .

ويقول أبو الحسن الأشعري رحمه الله : « أجمعت المعتزلة إلا الأصم على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان واليد والسيف كيف قدروا على ذلك».

لذلك كانت المعتزلة ترى قتال المخالف لهم سواء كان سلطاناً أو غيره من عامة الناس.

---

(١) الزمخشري : أبو القاسم محمد بن عمر الخوارزمي الحنفي المعتزلي الملقب بجار الله، توفي سنة ٥٣٨ هـ.

فقالوا بوجوب الخروج على السلطان الجائر وقتال المخالفين بلا تفريقٍ بين قتال الكافر والفاسق وتعلقوا بقول الله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ ... ﴾ [الحجرات: ٩] ، فالإصلاح أولاً ثم الانتقال إلى المقاتلة ، والجواب أن هذا خاصٌ في المتقاتلين؛ لأنه لا سبيل إلا بذلك.

وأما عموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو مرتب بترتيب رسول الله باليد ، ثم باللسان ، ثم بالقلب ، وكل ذلك إيمانٌ ولكنه متفاوتٌ ، وأما في السلطان فالأصل الصبر عليه وعلى جوره وعدم الخروج عليه.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : « ولهذا أمر رسول الله بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة » .

عن عبادة بن الصامت: « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرةٍ علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان...» رواه مسلم[1].

* * *

(١) للاستزاده في هذا الموضوع راجع رسالة معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة لعبد السلام البرجس ، ورسالة المعلوم من واجب العلاقة بين الحاكم والمحكوم لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.

الأشاعرة

أبو الحسن الأشعري رحمه الله

هو علي بن إسماعيل الاشعري اليماني البصري ، من ولد عبد الله بن قيس أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل. وُلد بالبصرة سنه (٢٦٠ هـ) ، وعاش فترةً طويلةً على الاعتزال الذي أخذه من أبْي علي الجبائي ، وظلَّ على مذهب المعتزلة وملازمة شيخه الجبائي حتى بلغ أربعين سنةً من عمره ، وقد بلغ فيها مرتبة الإمامة والرئاسة ، ثم وفقه الله تعالى للخروج من هذا المذهب والاشتغال بالردِّ عليهم وإظهار فضائحهم . و يقول رحمه الله عن سبب خروجه:

« كان الداعي إلى رجوعي عن الاعتزال وإلى النظر في أدلتهم واستخراج فسادهم أني رأيت رسول الله ﷺ في منامي في أول شهر رمضان فقال: أو ما كتبت أنَّ الله تعالى يُرى في الأخرى؟ فقلت بلى يا رسول الله ..... فلما انتبهت فزعت فزعاً شديداً وأخذت أتأمل... فلما دخلنا في العشر الثاني من رمضان رأيته ﷺ ... فانتبهت ، فقمت وجمعت جميع ما كان بين يدي من الكتب الكلاميات وضبرتها ورفعتها ، واشتغلت بكتب الحديث وتفسير القران والعلوم الشرعية ... فأخذت في التصانيف والنصرة و أظهرت المذهب » .

وسببٌ آخرٌ في رجوعه عن الاعتزال ، وهو كثرة المسائل التي كان يوردها على شيخه الذي لم يكن يجيبه بما هو مقنعٌ وشافٍ مما يزيده حيرةً وشكاً في مذهبه.

ثم انتقل أبو الحسن إلى طريقة ومسلك عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري.

يقول عنه الذهبي : ((رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه ، صاحب التصانيف في الردِّ على المعتزلة وربما وافقهم، وله كتاب « الصفات » ، و « خلق أفعال العباد » ، و « الردّ على المعتزلة » .

وكانت وفاته بعد سنة (٢٤٠ هـ). وقد نصَّ شيخ الإسلام، والذهبي، والمقريزي وغيره أنَّ الأشعري لّما رجع عن الاعتزال سلك طريق الكلابين وابن كلاب.

ويقول شيخ الإسلام عن ابن كلاب: « صنَّف مصنَّفات ردَّ فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، وهو من متكلمة الصفاتية ، وطريقته يميل فيها إلى مذهب أهل الحديث والسنة ، لكن فيها نوعٌ من البدعة لكونه أثبت قيام الصفات بذات الله ، ولم يثبت الأمور الاختيارية بذاته ...» فابن كلاب أثبت لله تعالى الصفات اللازمة الذاتية ، إلا أنه وافق المعتزلة في إنكار الصفات الاختيارية التي تتعلق بمشيئة الله تعالى وقدرته. فهو قد وافق أهل السنة في أمورٍ ، كما وافق المعطلة في أمورٍ أخرى.

ثم انتقل أبو الحسن بعد مكوثه فترةً على طريقة ابن كلاب ، إلى **الرجوع التام – من حيث الجملة – إلى مذهب**

أهل السنة والجماعة ، والتزام طريقتهم واتباع منهجهم ومسلكهم ، وبقي كذلك حتى توفي رحمه الله سنة (٣٢٤ هـ) بعد أن انتصر للسُّنَّة و أهلها وألَّف وصنَّف كتاب الإبانة؛ تبياناً لمعتقده وأصول دينه.

وقد شهد له العلماء والأئمة بالرجوع التام إلى مذهب السلف ، ومن هؤلاء:

شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الحافظ ابن القيم، والحافظ الذهبي ، والحافظ ابن كثير الذي نصَّ على أحواله الثلاث بقوله: « أولها: حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة . الثاني : إثبات الصفات العقلية السبعة: وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، وتأويل الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك. الثالث: إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه؛ جرياً على منوال السلف ، وهي طريقته في الإبانة التي صنَّفها آخراً ».

وممن أثبت له كتاب الإبانة:

ابن النديم في كتابه الفهرست حيث ترجم للأشعري وذكر جملةً من مصنفاته ومنها كتاب « التبيين عن أصول الدين » وابن النديم من أقرب العلماء زمناً بزمن الأشعري حيث إنَّ وفاته كانت في سنة (٣٨٥ هـ). ووفاة الأشعري (٣٢٤هـ).

ثم جاء بعده أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي توفي سنة (٥٧١ هـ) فذبَّ عن الأشعري وأثبت له كتاب الإبانة فقال: « وتصانيفه بين أهل العلم مشهورةٌ معروفةٌ، وبالإجادة والإصابة للتحقيق عند المحققين موصوفةٌ ، ومن وقف على كتابه المسمى « الإبانة » عرف موضعه من العلم والديانة ».

وذكر ابن عساكر عن إمام أهل السنة أبي عثمان الصابوني ثناءه على كتاب الإبانة وعلى أبي الحسن الاشعري وأنه من أعيان أهل الأثر.

ثم جاء ابن درباس المتوفى سنة (٦٥٩ هـ) وألَّف كتاباً في الذبِّ عن الأشعري فقال : « إنَّ كتاب « الإبانة عن أصول الديانة » ألَّفه الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، وهو الذي استقر عليه أمره فيما كان يعتقده ، وبما كان يدين الله سبحانه تعالى بعد رجوعه عن الاعتزال بمنِّ الله ولطفه. وكلُّ مقالةٍ تُنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه ، فقد رجع عنها وتبرَّأ إلى الله سبحانه منها ، كيف وقد نصَّ فيه على أنَّه ديانته التي يدين الله سبحانه بها ، وروى وأثبت ديانة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث الماضين ، وقول أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين ..... وقد ذكر هذا الكتاب واعتمد عليه وأثبته عن الإمام أبي الحسن ، وأثنى عليه بما ذكره فيه ، وبرَّأه من كلِّ بدعةٍ نُسبت إليه ، ونقل منه إلى تصنيفه جماعةٌ من الأئمة الأعلام من فقهاء الإسلام ، وأئمة القرّاء ، وحفّاظ الحديث وغيرهم ».

* * *

الأشاعرة

وأما الأشاعرة فهم طائفةٌ من أهل الكلام ينتسبون إلى الإمام أبي الحسن ، وينسبون إليه مذهبهم ومسلكهم الكلامي المخالف لمذهب ومسلك أهل السُّنَّة ولمسلك أبي الحسن نفسه.

ومذهبهم في باب الأسماء والصفات يقوم على التأويل المذموم لنصوص الصفات بأنواع المجازات وغرائب اللغة ، تأويل يصل بها إلى التحريف وإخراجها عن ظواهرها وعن مراد الله تعالى ممّا يليق به جل وعلا.

وهذا المذهب يمثل في حقيقته وأصله الطور الثاني من أطوار أبي الحسن حين ترك الاعتزال وسلك مسلك ابن كلاب البصري المتكلم ، ويصف شيخ الإسلام ابن تيمية هذا المسلك وهذه الطريقة بأنها «برزخ بين السلف والجهمية باعتبار أنهم أخذوا كلاماً صحيحاً من مذهب السلف ، وكلاماً وأصولاً عقليةً جدليةً من مذهب الجهمية ظنوها صحيحةً وهي فاسدةٌ» .

ثم إن الأشاعرة طوّروا المذهب وزادوا عليه أصولاً كثيرةً من مذهب المعتزلة لا علاقة لها بأبي الحسن رحمه الله ، وذلك كما فعل أبو المعالي الجويني إمام الحرمين المتوفى سنة (٤٧٨ هـ) الذي اشتهر بكثرة مطالعة كتب ومصنَّفات أبي هاشم الجبائي[1].

ثم جاء إمام الأشعرية الفخر الرازي وقعَّد أصول المذهب توفي سنة (٦٠٦ هـ) ثم الآمدي توفي سنة (٦٣١ هـ) ، ثم القاضي عبد الرحمن بن أحمد الأيجي توفي سنة (٧٥٦ هـ).

وخلاصة مذهب الأشاعرة في صفات الباري جل وعلا أنهم يقسمونها إلى:

١ - **صفة نفسية** : وهي الحال الواجبة للذات كالوجود، والقدم، والبقاء.

٢ - **صفة سلبية** : وهي التي سلبت أمراً لا يليق بالله، كمخالفته للحوادث، وقيامه بنفسه، والوحدانية.

٣ - **صفة المعاني** : وهي كلُّ صفةٍ قائمةٍ بموصوفٍ زائدةٍ على الذات ، وموجبةٍ له حكماً كالحياة ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، والكلام.

٤ - **الصفات المعنوية** : وهي ملازمةٌ لصفات المعاني، وهي الحال الواجبة للذات ما دامت صفات المعاني قائمةً بالذات وهي كونه سبحانه وتعالى: حيّاً ، قادراً ، مريداً ، عالماً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً.

وهذه الصفات يطلقون عليها اسم الصفات العقلية بمعنى أن طريقة إثباتها بالعقل وحده.

بينما نجد التقسيم السني الاستقرائي لنصوص الصفات على قسمين:

صفات ثبوتية.

صفات سلبية.

---

(١) أبو هاشم الجبائي : اسمه عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران بن أبان مولى عثمان بن عفان، توفي في رجب سنة ٣٠١ هـ، وتتلمذ هو وأبو الحسن الأشعري على أبيه الجبائي إلا أن الأشعري تسنن ونابذه بعد ذلك.

ثم تقسيم الصفات الثبوتية إلى صفاتٍ ذاتيةٍ وصفاتٍ فعليةٍ ، وكلُّ ذلك حسب النصوص الشرعية ، وعلى مقتضى ورود هذه النصوص، لا علاقة للعقل في شيءٍ منها استقلالاً ، وإن كان العقل يستدل ويستنير بما دلَّ عليه السمع مما يزيد المرء علماً ومعرفةً بالله تعالى وأسمائه وصفاته ، فهو تبعٌ للسمع والنقل وهذه وظيفته.

ولقد خالف الأشاعرة المتأخرون - بما قعدّه لهم وأصَّله أئمتهم- ما كان عليه السلف الكرام في أبواب الدين وأصول الإيمان ، ومن أهم ما خالفوا فيه مما تعد شبهاً تعلقوا بها وظنوها أدلةً وهدى:

١ - تقديم العقل على النقل

صرَّح الجويني والرازي وعبد القاهر البغدادي وأبو حامد الغزالي والآمدي والقاضي الأيجي وابن فورك والسنوسي واللقاني[١] وغيرهم من أئمة الأشاعرة بتقديم العقل على النقل عند التعارض، وزاد بعضهم في غُلُوّه فزعم أنَّ الأخذ بظواهر الكتاب والسنة أصلٌ من أصول الكفر. يقول الرازي- وقد اعتبر هذه الشبهة القانون الكلي للمذهب في الصفات- : « الفصل الثاني والثلاثون في أنَّ البراهين العقلية إذا صارت معارضةً بالظواهر النقلية فكيف يكون الحال فيها » ؟

اعلم أنَّ الدلائل القطعية إذا كانت على ثبوت شيءٍ ثم وجدنا أدلةً نقليةً يُشْعِر ظاهرها بخلاف ذلك فهناك لا يخلو الحال من أحد أمورٍ أربعةٍ:

١ - إما أنْ يصدق مقتضى العقل والنقل فيلزم تصديق النقيضين وهو محالٌ.
٢ - وإما أنْ يبطل فيلزم تكذيب النقيضين وهو محالٌ.
٣- وإما أن يصدق الظواهر النقلية ويكذب الظواهر العقلية وذلك باطلٌ.

لأنه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع وصفاته وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول ﷺ وظهور المعجزات على محمد ﷺ .

ولو جوزنا القدح في الدلائل العقلية القطعية صار العقل مُتهماً غير مقبول القول ، ولو كان كذلك لخرج أن يكون مقبول القول في هذه الأصول وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدةً ، فثبت أنَّ القدح في العقل لتصحيح النقل ، يفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً وأنه باطلٌ ، ولما بطلت الأقسام ، لم يبق إلا أن يُقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة بأنَّ هذه الدلائل النقلية إمّا أنْ يُقال إنها غير صحيحةٍ أو يُقال إنها صحيحةٌ أو يقال إنها صحيحةٌ إلا أن المراد منها غير ظواهرها. ثم إنْ جوَّزنا التأويل اشتغلنا على سبيل التبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل وإنْ لم يجز التأويل فوضنا العلم بها إلى الله تعالى فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه جميع المتشابهات وبالله التوفيق»[٢] .

---

(١) اللقاني : برهان الدين بن حسن بن علي بن عبد القدوس المالكي اللقاني نسبة لقرية «لقانه» بمصر توفي منصرفاً من الحج بالشرقية ليلة الأحد قبل العشاء الأخير شهر صفر سنة إحدى وأربعون بعد الألف.

(٢) أساس التقديس / ١٥٨ الإرشاد للجويني / ٣٥٩ .

وهذه الشبهة وجدت لها في أفكار الأشاعرة قاطبة مكاناً كبيراً واسعاً، فلقد أصبحت قضيةً مسلَّمةً لا يجوز فيها النقاش والبحث والنظر.

وبهذه الشبهة ضيقوا واسعاً، واستخفوا بنصوص الكتاب والسنة وسدُّوا على القلوب معرفة الله تعالى، وحسن معرفة أسمائه وصفاته.

٢- ظواهر نصوص الصفات توهم التشبيه :

وضعوا هذه القاعدة لأنفسهم ثم اعتمدوها في وجوب تأويل النصوص وصرفها عن ظواهرها بحجة أنها توهم التشبيه وأنها غير مرادة لله تعالى.

يقول ابن فورك - وقد أوَّل جميع نصوص الصفات في كتابه « مشكل الحديث » - :

« ذكر خبرٍ مما يقتضي التأويل ويوهم ظاهره التشبيه » . ثم يذكر الخبر ويتناوله بالتأويل والتحريف وعلى هذا مشى الأشاعرة فيقول اللقاني صاحب الجوهرة:

وكـــلُّ نـــصٍّ أوهـــم التـــشبيها أَوّلْـــهُ أوْ فَـــوِّضْ ورُمْ تنزيهـــا

ويقول البيجوري[1] في شرحه: « والمراد بالنص هنا ما قابل القياس والاستنباط كما في تحفة المريد على جوهرة التوحيد.

وبناءً على هذه الشبه حكم السنوسي- وهو أحد أساطينهم - حكماً جائراً على كلِّ من اعتقد وآمن بهذه الظواهر في كتابه شرح عقيدة أهل التوحيد الكبرى يقول:

«وأمّا من زعم أنَّ الطريق بدأ إلى معرفة الحق الكتاب والسنة ويحرم ما سواهما، فالردُّ عليه أنَّ حجتيهما لا تُعرف إلا بالنظر العقلي ، وأيضاً فقد وقعت فيهما ظواهر من اعتقدها على ظاهرها كفر عند جماعةٍ وابتدع » .

وقال أيضاً : « أصول الكفر ستةٌ » ، ثم عدَّ خمسةً منها، ثم قال: سادساً: التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية ، والقواطع الشرعية ، للجهل بأدلة العقول ، وعدم الارتباط بأساليب العرب ، والتمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير بصيرةٍ في العقل هو أصل ضلالة الحشوية ، فقالوا بالتشبيه والتجسيم والجهة عملاً بظاهر قول الله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] ، ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك: ١٦] ، ﴿ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ [ص: ٧٥] ونحوها.

وحقيقة شبهتهم أنَّ الله تعالى قد وصف نفسه في كتابه بما ظاهره التشبيه ، وما لا يليق به تعالى ، وكذلك النبي قد وصف ربه بأوصافٍ هي ظاهرها تشبيهٌ له بخلقه ، ثم لم يبين النبي المراد بهذه الصفات بل تركها على ظواهرها مما

---

(١) البيجوري : إبراهيم بن محمد بن أحمد الشافعي ونسبه إلى قرية باجور بمصر، تقلد رئاسة الأزهر سنة (١٢٦٣) هـ توفي سنة (١٢٧٧) هـ ، عاش ٨٠ سنة، وهو شارح جوهرة التوحيد.

تؤدي بمن اعتقدها وآمن بها إلى الضلال أو الكفر وهذا القول لازمٌ لهم ولا يخفى ما فيه من الطعن في الكتاب وفي رسول الله ﷺ .

ثم إنَّ الأشاعرة لم يفهموا من صفات الله عند قراءتها وسماعها إلا ما هو من صفات المخلوقين ونعوت المحدثين، الأمر الذي حملهم على ما ذهبوا إليه من التأويل والتحريف؛ هروباً من التشبيه وعدم التنزيه. وأما ما ذهب إليه السلف، فيقول إسحاق بن راهوية[1] رحمه الله: « من وصف الله ، فشبّه صفاته بصفات أحدٍ من خلق الله، فهو كافرٌ بالله العظيم » .

ويقول نعيم بن حماد[2]رحمه الله: « من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهٌ ».

ويقول ابن عبد البر[3] رحمه الله: « أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها،وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يُكَيِّفون شيئاً من ذلك ولا يحدون فيه صفةً محصورةً». التمهيد.

ولا شك أنَّ هذا هو الصواب، والمسلك الصحيح، والمنهج القويم؛ وذلك لأنه امتثالٌ لدلالة الكتاب والسنة، والتمسك بما فيهما، والأخذ بكل ما جاء عن الله ورسوله ﷺ .

ولأنه اتباعٌ لما جاء عن سلف الأمة والجماعة ومعلومٌ أنهم كانوا على الحق.

وقول الأشاعرة يلزم منه أنَّ الجماعة كانوا جاهلين بالحق، أو كانوا عالمين به ولكنهم كتموه وكِلا الأمرين باطلٌ.

وشبهة الأشاعرة هذه باطلةٌ من عدة وجوهٍ أهمها:

١- أنَّ فيها الجناية على النصوص الشرعية حيث جعلوا ظاهرها يدّل على الضلال.

٢- صرفٌ لكلام الله وكلام رسوله عن ظاهره المعلوم فقد جاء الخطاب بلسانٍ عربيٍّ مفهومٍ فصيحٍ هدى ونور منه لخلقه.

٣- فيه المخالفة لما كان عليه سلف الأمة والجماعة، وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على الالتزام بما كانوا عليه، وأنَّ ذلك سبب النجاة والهدى.

٤- أنهم أعلم بمراد الله من الله ، وأعلم بمراد رسول الله منه في نصوص الصفات ، وفيه اتهام رسول الله بكتم شيءٍ من الحق والنور ، وترك الأمة على ما ظاهره الضلال أو الكفر ، وطعنٌ في القرآن الذي أنزله الله هدى ونوراً.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] .

---

(١) إسحق بن راهوية : سيد الحفاظ ولد سنة ١٦١ هـ توفي ليلة النصف من شعبان سنة ٢٣٨ هـ

(٢) نعيم بن حماد : شيخ البخاري حمل للعراق في فتنة خلق القرآن توفي سنة ٢٢٩ هـ.

(٣) ابن عبد البر : ولد ٣٦٨ هـ وفاته سنة ٤٦٣ وهو صاحب التمهيد.

٢ - أحاديث الأحاد تفيد الظن:

قسموا النصوص الشرعية باعتبار وصولها إلينا إلى متواترٍ وآحادٍ ، وأنَّ الآحاد لا يفيد علماً ولا يؤخذ منه عقيدةٌ[١] .

يقول الرازي « أمّا التمسك بخبر الواحد في معرفة الله تعالى فغير جائزٍ ؛ لأن أخبار الآحاد مظنونةٌ ، ولم يجز التمسك بالمظنون في معرفة صفات الله وأسمائه ، وإنما قلنا إنها مظنونة وذلك لأنا أجمعنا على أنَّ الرواة غير معصومين ... ولقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴾ [يونس: ٣٦] ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴾ [النجم:٢٨].

وجزم الرازي كما في كتابه أساس التقديس ، والأربعين: أن رواية الصحابة مظنونةٌ من حيث عدالتهم وحفظهم ، ثم زعم ترويجاً لقاعدته وأصله الذي أصَّل في مذهبه أنَّ في الصحيحين أحاديث من وضع الزنادقة .... وزاد من الجرأة والقبح أكثر من ذلك.

وحقيقة هذه الشبهة تفضي إلى ترك العمل بالأحاديث الصحيحة التي تلقتها الأمة بالقبول والتي رواها البخاري ومسلم وغيرهما.

ومذهب السلف الصالح قائمٌ على العمل بالأحاديث الصحيحة التي تثبت صفات الله تعالى ، ولا يُفرقون بين المتواتر والآحاد ، كما لا يفرقون في الاحتجاج بها بين العقائد والأحكام وبين العلم والعمل ؛ لأن الكلَّ من بابٍ واحدٍ.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: « وخبر الواحد المتلقى بالقبول يوجب العلم عند الجمهور من أصحاب أبي حنيفةَ ومالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ وهو قول أكثر أصحاب الأشعري كالاسفراييني، وابن فورك ...» [٢] .

ويقول ابن القيم رحمه الله مبيناً بطلان التفريق: «وهذا التفريق باطلٌ بإجماع الأمة؛ فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث في الخبريّات العلميّات ، كما تحتج بها في الطلبيّات العمليّات ، ولاسيما أنَّ الأحكام العملية تتضمن الخبر عن الله بأنه شرع كذا ، وأوجبه ، ورضيه ، فَشَرْعُه ودينه راجعٌ إلى أسمائه وصفاته ، ولم يزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام ، ولم يُنقل عن أحد منهم البتة أنه جوَّز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته ، فأين سلف المفرقين في البابين؟ نعم سلفهم بعض متأخري المتكلمين الذين لا عناية لهم بما جاء عن الله ورسوله والصحابة ، بل يصدون القلوب عن الاهتداء في هذا الباب بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة ، ويحيلون على أراء المتكلمين وقواعد المتكلمين ...» [٣] .

---

(١) للشيخ الألباني حفظه الله رسالة في حجية خبر الآحاد في العقيدة تراجع للفائدة وعنوانها : « الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام ».

(٢) مجموع الفتاوى.

(٣) الصواعق المرسلة.

وأما استدلالهم ببعض الآيات ، فالجواب أنَّ الآيات تذم اتباع الظنِّ ذمّاً مطلقاً، تذم كل من أخذ بالظنِّ ، ولم تُفرّق بين العقيدة والشريعة.

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾[الأنعام: ١٤٨] .

فالظن المذموم اتباعه في العقائد: ﴿ مَآ أَشۡرَكۡنَا ﴾، وفي الأحكام والتشريع: ﴿ وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ ﴾

وأما الظن الراجح الغالب فإنه يجب الأخذ به اتفاقاً عند سلف الأمة:

﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴾ [الحاقة: ٢٠ – ٢٢] .

﴿ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١١٨] .

فثبت أن الظنَّ المذموم الذي لا يجوز الأخذ به والتعويل عليه هو الظن اللغوي والمرادف للخرص والتخمين والقول بلا علمٍ ، وهذا مذمومٌ اتباعه في العقائد والأحكام على السواء.

وأما الظنُّ الغالب الراجح فواجب العمل به؛ لأنه ظنٌّ ينتهي إلى قول رسول الله ﷺ المعصوم ، والأمة بعده قد تلقت هذه النصوص والأخبار بالقبول ، والأمة معصومةٌ من الخطأ أيضاً.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «ولو جاز لأحدٍ من الناس أن يقول في علم الخاصة: أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تثبيت خبر الواحد والانتهاء إليه – بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين أحدٌ إلا وقد ثبته – جاز لي ، ولكن أقول : لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد»[1].

وبهذه القواعد الثلاث أو الشبه الثلاث المتقدمة تمكن الأشاعرة من الخوض والتأويل في صفات الله تعالى ، وإخراجها عن ظاهرها ، موافقةً منهم لحججهم العقلية وقواعدهم الفلسفية الدخيلة على سلف الأمة ومنهجها ، وهذه الأسس هي التي أوقعتهم في مخالفاتٍ كثيرةٍ ، جانبوا فيها الصواب ، وابتعدوا عن منهج السلف الكرام ، ووافقوا الفلاسفة وتلاميذهم ، وأهمها:

إثبات وجود الله

يستدل الأشاعرة على وجود الله بدليل عقلي وهو «الحدوث والقدم» من أنَّ كلَّ حادثٍ لا بدَّ له من حدثٍ قديمٍ ، وأخصُّ صفاته مخالفته للحوادث، وعدم حلول الحوادث فيه ، فقالوا: ليس بجوهرٍ ولا عرضٍ ولا جسمٍ ولا في جهةٍ ولا مكانٍ ...» .

ونفوا عنه على مقتضى أصولهم : الرضا ، والغضب ، والاستواء بشبهة نفي حلول الحوادث فيه.

---

(١) الرسالة ، باب خبر الواحد .

وأما السلف رحمهم الله فإنهم يستدلون على وجوده بأدلة الفطرة ، والضرورة العقلية ، والكون والآفاق ، والنفس ، ففي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدل عليه وعلى وجوده ، مع علمهم أنَّ الأنبياء لم تشتغل مع أقوامهم بإثبات وجود الله والاستدلال عليه ؛ لأنه من الأمور الضرورية الثابتة في فطر الخلق جميعاً.

التوحيد

الأصل في توحيد الأشاعرة هو نفي التثنية أو التعدد ، ثم نفي التبعيض والتركيب والتجزئة؛ لذلك يدور تفسيرهم للفظ «الإلـٰه» بأنه الخالق والقادر على الاختراع ، ولا يبحثون في التوحيد الحق الذي يقابله الشرك كما هو شأن السلف؛ ولذلك يوجبون على المكلَّف النظر ثم الإيمان بالخالق الواحد المخترع ، وينكر كثيرٌ منهم الإيمان الفطري ، ويصفونه بإيمان المقلِّدة ، وعدَّه بعضهم معصيةً ، وبعضهم كفراً.

يقول ابن حجرٍ العسقلاني[1] في الردِّ عليهم: «لازم قولهم تكفير العوام ، بل تكفير الصدر الأول»[2].

ولا يذكرون في كلامهم عن التوحيد إلا هذه الأمور والمسائل التي ورثوها عن الفلاسفة وغيرهم ، وأما التوحيد بأقسامه الثلاث فلا يتطرقون إليه ولا يذكرونه؛ لأنه من توحيد العامة.

الإيمان

والأشاعرة في الإيمان وتعريفه وحقيقته مرجئةٌ ، فقد اتفقوا على أنَّ الإيمان هو التصديق بالقلب ، واختلفوا في النطق به هل لا بدَّ منه أم لا.

وفي ذلك يقول صاحب الجوهرة:

وفَسِّرْ الإيمانَ بالتصْديقِ وانْطِقْ فِيه الخُلْفَ بِالتحْقِيقِ

ورجَّح كثيرٌ منهم عدم وجوب النطق به ، وأنَّ من صدَّق بقلبه فهو مؤمنٌ ناجٍ عند الله تعالى وإنْ لم ينطق به ، ويلزم هذا القول والمذهب إثبات الإيمان لكلِّ من عرف الحق مثل إبليس ، ومن ذكر الله تعالى من اليهود والنصارى الذين عرفوا الحق وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كما قال تعالى عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ ﴾ [البقرة: ١٤٦] ، وكذلك أبو طالبٍ عمّ النبي ﷺ فقد ذكر أنَّ دين محمدٍ خير أديان البرية في الورى ، وغير ذلك مما يدل دلالةً قاطعةً على معرفته أنه الحق والدين الحق ، ولكنه لم ينطق بالشهادتين.

---

(١) العسقلاني : هو الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ – ٨٥٢) صاحب فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، وصاحب تهذيب التهذيب.

(٢) الفتح .

القرآن

فرّق الأشاعرة بين اللفظ والمعنى ، فأثبتوا لله تعالى معنىً أزليّاً قائماً بالنفس ، ليس بحرفٍ ولا صوتٍ ، وشبهتهم في هذا التفريق والتلفيق:

إنَّ الكَــلامَ لَفِــي الفُــؤادِ وإنَّــما جُعِــلَ اللِّــسانُ عَــلى الفُــؤادِ دَلــيلاً

ثم قالوا إنَّ الكتب المنزلة: التوراة، والإنجيل، والقرآن ليست كلام الله تعالى على الحقيقة بل هي عبارةٌ عن كلام الله النفسي ، ويقَال إنها كلام الله مجازاً؛ لأنها عبارةٌ عن كلامه جل وعلا.

يقول عبد الرحمن الأيجي في المواقف ما نصُّه:

«قال الحنابلة: كلامه حرفٌ وصوتٌ يقومان بذاته وإنه قديمٌ ، وقد بالغوا فيه حتى قال بعضهم جهلاً: الجلد والغلاف قديمان[1] ، وهذا باطلٌ بالضرورة؛ فإن حصول كل حرفٍ مشروطٌ بانقضاء الآخر فيكون له أولٌ فلا يكون قديماً ، فكذا المجموع المركب منها » .

« وقالت المعتزلة: أصواتٌ وحروفٌ يخلقها الله في غيره ، كاللوح المحفوظ ، أو جبريل ، أو النبي ، وهو حادثٌ ، وهذا لا ننكره ، لكنا نثبت أمراً وراء ذلك ، وهو المعنى القائم بالنفس ، ونزعم أنه غير العبارات.... فإذاً، هو صفةٌ ثالثةٌ قائمةٌ بالنفس ، ثم تزعم أنه قديمٌ لامتناع قيام الحوادث بذاته تعالى ... فإذا عرفت هذا فاعلم أنَّ ما يقوله المعتزلة ، وهو خلق الأصوات والحروف وكونها حادثةً قائمةً فنحن نقول به ولا نزاع بيننا وبينهم في ذلك ...».

وخلاصة القول: إنَّ الأشاعرة والأشعرية فرقةٌ كلاميةٌ طارئةٌ ، قد نشأت بعد القرون الفاضلة حيث إنها تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري ، وقد كان معتزلياً بالاتفاق حتى بلغ الأربعين أي حتى سنة (٣٠٠ هـ) ثم انتقل إلى الطريقة الكلابية وأخذ يردُّ على المعتزلة بالأدلة الشرعية والقواعد الكلامية ، أي قد سلك مسلكاً لا هو بالسُنِّي المحض ولا بالعقلي الكلامي المحض كما هو شأن المعتزلة ، ثم إنه استبصر الحق وتراجع عن جميع مسالكه وأقواله في الصفات وغيرها إلى مذهب أهل الحق كما بيّنه ونصَّ عليه رحمه الله.

وأما الأشاعرة فما زالت تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري، وتتبنّى ما كان عليه في طوره الثاني بعد فراره من الاعتزال وقبل رجوعه إلى أهل السنة ، ومازالوا يُحملونه تبعة ذلك المذهب التلفيقي وينسبونه إليه.

ثم إنَّ الأشعرية قد مرَّت بأطوارٍ ابتعدت فيها عن أهل السنة ، خاصّةً بعد أن أصَّل وقعَّد المذهب زعماء اعتمدوا على الفلسفة والمنطق والكلام والجدل ، فأضافوا على المذهب أصولاً ومسائلَ لم تُعرف عن أبي الحسن الأشعري ، بل عُرف عنه خلافه ، ومن أشهر أولئك: الباقلاني[2] المتوفى سنة (٤٠٣ هـ) والقشيري[3] الصوفي المتوفى

---

(١) القول بأن الجلد والغلاف قديمان لم يقل به أحد من الحنابلة مطلقاً وهذا ادعاء من ادعاءات أهل البدع لتشويه الحق.

(٢) الباقلاني : أبو بكر محمد الباقلاني المتكلم المشهور كان على مذهب أبي الحسن ت ٤٠٣ هـ.

(٣) القشيري : أبو القاسم عبد الكريم بن هوازان القشيري الخرساني النيسابوري الشافعي الصوفي المفسر صاحب الرسالة ولد سنة ٣٧٥ هـ ، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي توفي سنة ٤٦٥ هـ وعاش ٩٠ سنة.

سنة (٤٦٥ هـ) وأبو المعالي الجويني المتوفى (٤٧٨ هـ) ، وأبو حامد الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥ هـ) ، والفخر الرازي المتوفى سنة (٦٠٦ هـ) ، والآمدي المتوفى سنة (٦٨٢ هـ).

وللرازي والآمدي الدور الأكبر في تأصيل المذهب على خلاف منهج أهل السنة ، وتبعهما الأشاعرة وغيرهما في جميع القواعد والأصول التي جعلاها أصلاً للمذهب مما خالفا أهل السنة في مسائل عقائدية كبرى كالخوض في الصفات بالتأويل ، رغم تحذير السلف من ذلك. وكذلك التعويل على العقل والجدل وعلم الكلام ، وتقديم ذلك كله على نصوص الوحي ، وتفسيرهم التوحيد الذي هو غاية الخلق بتوحيد الربوبية مع الغفلة التامة والعماية الكاملة عن توحيد الألوهية والعبادة ، وكذلك قولهم في القرآن ، والإيمان ، والقدر ، والنبوات وغير ذلك مما هو نتيجة تأثرهم بالأصول الكلامية والفلسفية حتى غدت عقيدتهم خليطاً بين الحق والباطل ، بين أهل السنة والمعتزلة والفلاسفة ، مخالفين بذلك إمامهم الذي ينتسبون إليه حسب ما قرّره رحمه الله في مصنفاته ، مما يؤكد أن الأشاعرة وإن انتسبوا إليه فإنهم يخالفونه ، ويمكن اعتبار صحة هذه النسبة للطور الثاني من حياة أبي الحسن ، ولكنهم قد أضافوا إليها أشياء كثيرة من أصول المعتزلة الذين اجتهد أبو الحسن في الردِّ عليهم وكشف باطلهم وعقائدهم المنحرفة.

لقد قام الإمام الأشعري بإثبات الصفات الذاتية مثل: الوجه واليدين والعينين ، كما أثبت للباري الصفات الفعلية مثل: الاستواء ، والإتيان والمجيء ، والنزول بلا تمثيلٍ ولا تكييفٍ.

وأما جمهور الأشاعرة فإنهم يخالفونه في ذلك كله مخالفةً صريحةً ، بل يحكمون بالضلال على معتقِد ذلك ومثبته على ظاهره ، وهم مع ذلك ينتسبون إليه.

وأختم القول في الأشاعرة ومذهبهم بما ثبت عن أئمتهم وأساطينهم من رجوعٍ إلى الحق ، بعد أن كرّسوا حياتهم وجهدهم بنشر المذهب، وتنظيمه، وتهذيبه ، وتزيينه ، فكتبوا في أخريات حياتهم ونهاية مطافهم الاعتراف بالحيرة والاضطراب العقائدي والفكري بسبب البعد عن منهج السلف ونور الوحي، والاعتماد على الفلسفة، والخوض في المنطق والكلام والجدل ، وتقليد الشيوخ الذين أخذوا عنهم وتلقوا منهم.

وإنَّ في هذه الاعترافات عظةً وعبرةً لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ في معرفة الحق والتمسك به ، ومعرفة الباطل وإنْ زخرفه الناس وزيّنوه ، خاصّةً لمن كان ولا يزال في بداية الطريق على مذهب الأشاعرة.

الإمام الجويني (الأب) المتوفى سنة ٤٢٨ هـ

هو عبد الله بن يوسف بن محمدٍ والد إمام الحرمين ، كان من الأشاعرة ، وكان زاهداً شديد الاحتياط في دين الله تعالى ، لكنه تحيَّر في كثيرٍ من مسائل الاعتقاد التي أخذها عن شيوخه ، ثم رأى الحق وأنه ليس فيما أخذ ، بل هو عند سلف الأمة ومن تبعهم ، ثم استقرَّ أمره رحمه الله فكتب نصيحةً لإخوانه وأقرانه وشيوخه من الأشاعرة.

يقول: « فهذه نصيحةٌ كتبتها لإخواني في الله ... لما تعين علي محبتهم ونصيحتهم في صفات الله .. وأعرفهم أنني كنت برهةً من الدهر متحيراً في ثلاث مسائل:

مسألة الصفات ، ومسألة الفوقية ، ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد.

وكنت متحيراً في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك ، من تأويل الصفات وتحريفها ، أو إمرارها ، أو الوقوف فيها ، أو إثباتها بلا تأويلٍ ولا تعطيلٍ، ولا تشبيهٍ ولا تمثيلٍ.

فأجد النصوص في كتاب الله وسنة رسوله ، ناطقةً مبينةً لحقائق هذه الصفات ، وكذلك في إثبات العلو والفوقية ، وكذلك في الحرف والصوت ، ثم أجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم: منهم من تأوَّل الاستواء بالقهر والاستيلاء ، وتأوَّل النزول بنزول الأمر ، وتأوَّل اليدين بالنعمتين والقدرتين ..... ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله معنىً قائماً بالذات بلا حرفٍ ولا صوتٍ ، ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم».

ثم بيَّن أنَّ أصحاب هذه الأقوال لهم في صدره منزلةً وقد تتلمذ عليهم ، وبيَّن أنَّ تلك التأويلات لم يطمئن قلبه إليها ، بل وجد فيها الكدرة والظلمة وضيق الصدر وعدم الانشراح ، ثم قال: «... فلم أزل في هذه الحيرة والاضطراب... حتى لطف الله بي ، وكشف لهذا الضعيف عن وجه الحق ...» .

ثم أثبت العلو والاستواء والفوقية لله تعالى ، وأن جميع الصفات تساق مساق العلو ، ثم بين مسألة الحرف والصوت في كلام الله ، كل ذلك شرحه وبيَّنه على مذهب السلف ناصحاً أقرانه ومشايخه للرجوع إلى مذهب السلف[1].

إمام الحرمين الجويني (الابن) المتوفى سنة ٤٧٨ هـ

هو عبد الملك بن عبد الله ، أبو المعالي الجويني من أقطاب الأشاعرة وأئمتهم وهو ممن أدخل في المذهب أصولاً من أصول المعتزلة ، وقد اشتهر بكثرة مطالعته في مصنفات أبي هاشمٍ الجبائي المعتزلي ، وله مصنفاتٌ عديدةٌ امتلأت بتأويل الصفات ، وتقديم العقل على النقل ، وبعد طول بحثٍ وتصنيفٍ وخوضٍ في الكلام والفلسفة بدت علامات الحيرة والاضطراب عليه ، ثم هداه الله تعالى إلى الحق وإلى مذهب السلف ، فحرم التأويل وأعلن البراءة منه واستدل على التحريم بإجماع السلف على ذلك فقال:

«وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى ...» . والذي نرتضيه رأياً ، وندين الله به عقلاً اتباع سلف الأمة ، فالأولى الاتباع وترك الابتداع ، والدليل السمعي القاطع في ذلك إجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة .... ولو كان تأويل هذه الآيات والظواهر مسوغاً ومحتوياً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ....

فحقٌّ على ذي دينٍ أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين ، ولا يخوض في تأويلات المشكلات بكل معناها إلى الرب تبارك وتعالى .... وممَّا استحسن من كلام إمام دار الهجرة الإمام مالك ... الاستواء معلوم والكيفية مجهولة ، والسؤال عنه بدعة.

---

(١) انظر رسالة النصيحة للجويني، ضمن الرسائل المنيرية.

فلنجري آية الاستواء والمجيء، وقوله: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] ، ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧] **وقوله:** ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] وما صحَّ من أخبار الرسول ﷺ كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا »[١].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: « وهذا إمام الحرمين ترك ما كان ينتحله ويقرره ، واختار مذهب السلف وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو أني عرفت أنَّ الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت فيما نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني ، وها أنذا أموت على عقيدة أبي ، أو قال على عقيدة عجائز نيسابور » .

أبو حامدٍ الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

هو محمد بن محمد الطوسي الغزالي تفقه على إمام الحرمين ، وبرع في علومٍ كثيرةٍ ، وله مصنفاتٌ عديدةٌ في فنونٍ شتى ، وكان من أذكياء العالم ، عاش في زمنٍ كثرت فيه الآراء والفرق والمذاهب المنحرفة ، يقول عن حاله التي عاشها:

«ولم أزل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الجذور ، وأتوغل في كل مظلمةٍ ، وأتهجم على كل مشكلةٍ ، وأقتحم كل ورطةٍ ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقةٍ ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفةٍ؛ لأميز بين محقٍّ ومبطلٍ ، ومتسننٍ ومبتدعٍ.

لا أغادر باطنيّاً إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريّاً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ، ولا صوفيّاً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .... فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، باستقصاء ما عند هذه الفرق: مبتدئاً بعلم الكلام ، ومثنياً بطريق الفلاسفة ، ومثلثاً بتعليمات الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية»[٢].

وهكذا استمر الغزالي حتى انتهى إلى الحيرة والاضطراب وأيقن أنَّ كل تلك الطرق لم ترو غليلاً ولم تشف عليلاً ، فلجأ إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وعاد إلى طريق السلف وأهل الحديث واشتغل بالصحيحين ، وعكف على دراسة وحفظ كتب السنة.

يقول تلميذه عبد الغافر الفارسي:

« وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين الذين هما حجة الإسلام ، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسيرٍ من الأيام يستفرغه من تحصيله»[٣].

---

(١) انظر العقيدة النظامية للجويني.

(٢) المنقذ من الضلال.

(٣) طبقات الشافعية/ سير أعلام النبلاء.

ويشير شيخ الإسلام رحمه الله إلى هذه المرحلة الأخيرة من حياة الغزالي كثيراً في مصنفاته ، مع تحذيره الشديد لما في كتبه ومصنفاته من الإضرار على العقل والروح ، وهذا دليل إنصافه وعدله رحمه الله مع نصحه الأمة وذبه عن دين الله تعالى.

ويقول أبو عمرو بن الصلاح[1] رحمه الله:

« أبو حامدٍ كثر القول فيه ، فأما هذه الكتب – يعني المخالفة للحق- فلا يلتفت إليها. وأما الرجل فيسكت عنه ، ويفوض أمره إلى الله » .

أبو الفتح الشهرساني المتوفى سنة ٥١٨ هـ

هو محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، الإمام الفقيه المتكلم ، برع وبرز في علم الكلام على مذهب الأشاعرة ، وصنَّف وكتب الملل والنحل ، ونهاية الإقدام في علم الكلام وغيرهما ، ويعد من كبار الأشاعرة وأئمتهم ممن نشر مذهبهم ونظمه ، وكانت نهايته كنهاية من سلفه من الحيرة والاضطراب.

نقل عنه شيخ الإسلام قوله:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائرٍ ... على ذقنٍ أو قارعاً سنَّ نادم

ويقول هو في بداية كتابه: نهاية الإقدام:

« أما بعد .... فقد أشار إليّ من إشارته غنمٌ وطاعته حتمٌ ، أن أجمع له مشكلات الأصول، وأحل له ما انعقد من غوامضها على أرباب العقول لحسن ظنه بي ..... ثم ذكر البيتين.

وهذا اعترافٌ أنه لم يطف ويدخل معهد النبوة والصحابة والسلف وأصحاب الحديث ، وفي ذلك يقول محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني[2] رحمه الله:

لعلك أهملت الطواف بمعهد ... الرسول ومن لاقاه من كل عالم

فما حار من يهدي بهدي محمدٍ ... ولست تراه عاش نادم

ويقول الشهرستاني: « فعليكم بدين العجائز ، فهو من أسنى الجوائز » .

---

(١) عمرو بن الصلاح : عثمان بن عبد الرحمن صلاح الدين قال عنه الذهبي : (كان متين الديانة سلفي الجملة صحيح النحلة توفي سنة (٦٤٣ هـ).

(٢) محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ، ولد سنة ١٠٥٩ هـ ، أخذ عن علماء صنعاء ثم رحل إلى مكة ، وكان من العلماء المبرزين ، وله كتاب سبل السلام في الفقه ، توفي رحمه الله سنة (١١٨٢) هـ.

الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ:

هو محمد بن عمر الحسين بن علي القرشي البكري ، المتكلم، صاحب التفسير والتصانيف الكثيرة ، ويعرف بابن خطيب الري ، وأحد مشاهير فقهاء الشافعية ، وكان معظماً عند الملوك وغيرهم ، وكان يحضر مجلس وعظة الملوك والوزراء والأمراء والعلماء ، والفقراء والعامة ، وقد برع في الكلام على مذهب الأشاعرة وصنف فيه: أساس التقديس ، والأربعين ، والمطالب العالية وغيرها ويعتبر ممن نظم المذهب وساهم في نشره ، ولكن وصل في نهاية المطاف إلى ما وصل إليه من قبل أسلافه وقد أنشد يقول:

نهايـــة إقـــدام العقـــول عقـــال وأكثـــر ســـعي العـــالمين ضـــلال

وأرواحنـا في وحـشةٍ مـن جـسومنا وحاصـــل دنيانـــا أذىً ووبـــال

ولم نستفد مـن بحثنـا طـول عمرنـا سـوى أن جمعنـا فيـه قيـل وقـالوا

ثم قال: « لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً.

ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. اقرأ في الإثبات : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] .

﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] .

واقرأ في النفي : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠] ، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] ، ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي » .

وقد كتب قبل وفاته وصيته يعلن فيها صراحةً رجوعه إلى مذهب السلف ، وأثبت الصفات الإلهية على الوجه اللائق به تعالى.

يقول ابن كثير رحمه الله:

« وقد ذكرت وصيته عند موته ، وأنه رجع عن مذهب الكلام إلى طريقة السلف ، وتسليم ما ورد على الوجه اللائق المراد بجلال الله سبحانه» (١).

يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله في لسان الميزان (٤/ ٤٢٦) :

«الفخر بن الخطيب ، صاحب التصانيف ، رأسٌ في الذكاء، لكنه عري من الآثار، وله تشكيكاتٌ على مسائل من دعائم الدين تورث حيرةً ، نسأل الله أن يثبت الإيمان في قلوبنا. وله كتاب السر المكتوم في مخاطبة النجوم ، سحر صريح ، فلعله تاب من تأليفه إن شاء الله تعالى».

ثم ذكر كلام ابن السبكي التاج الأشعري المتعصب الذي تعقب كلام الذهبي بالظلم والعدوان ثم قال رحمه الله:

---

(١) البداية والنهاية.

... وكان من تبحره في الأصول يقول: من التزم دين العجائز فهو الفائز ، وكان يُعاب بإيراد الشبه الشديدة ، ويقصر في حلها حتى قال بعض المغاربة: يورد الشبهة نقداً ويحلها نسيئةً.

ونقل عنه قوله: إن مذهب الجبر هو المذهب الصحيح، وقال بصحة الأعراض ، وأنَّ الصفات مجرد نسبٌ وإضافاتٌ كقول الفلاسفة ، وسلك طريق أرسطو في دليل التمانع ، وذكر أنَّ أهل مصر هموا به فاستتر عنهم ، ثم أسند إلى ابن الطباخ أن الفخر كان شيعيّاً ، وأنه قال: «كان علي شجاعاً بخلاف غيره». وعاب عليه تصنيفه لتفسيره ، ومفاتيح الغيب ، والمختصر في المنطق ، والآيات البينات.

كما عاب عليه تقريره لتلاميذه بأنه الإمام المجتبى ، أستاذ الدنيا ، أفضل العالم ، فخر ابن آدم ، حجة الله على الخلق ، صدر صدور العرب والعجم. ثم ختم الترجمة بقوله: مات سنة (٦٠٦ هـ) بمدينة هراة واسمه محمد بن عمر بن الحسين ، وأوصى بوصيةٍ تدل على أنه حسن اعتقاده.

ترجمة السيف الآمدي

يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله:

«السيف الآمدي المتكلم ، صاحب التصانيف ، وقد نُفي من دمشق لسوء اعتقاده، وصحَّ عنه أنه كان يترك الصلاة نسأل الله العافية. وكان من الأذكياء.

قدم بغداد وقرأ القراءات، وتفقه على مذهب ابن حنبل .... ثم تحول شافعياً ..... قاموا عليه ونسبوه للتعطيل ، وكتبوا عليه محضراً ، فخرج من مصر واستوطن حماة وصنف ثم تحول إلى دمشق ودرس بالعزيزية ثم عزل منها ، وذكر عنه أنه لم يكن في زمانه من يجاريه في الأصول وعلم الكلام ، واشتهر عنه كثرة الاشتغال بعلم المنطق وعلم الأوائل (يعني الفلاسفة).

ونقل يقول: قرأت بخط الذهبي في تاريخ الإسلام قال: « كان شيخنا القاضي تقي الدين سليمان يحكي عن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر قال: كنا نتردد إلى السيف الآمدي فشككنا هل يصلي؟ فتركناه حتى نام وعلمنا على رجله بالحبر ، فبقيت العلامة نحو يومين مكانها » ، ثم قال الحافظ رحمه الله: « وقد بالغ التاج السبكي في الحط على الذهبي في ذكره السيف الآمدي والفخر الرازي في هذا الكتاب ، وقال هذا مجرد تعصبٍ » [1].

* * *

(١) لسان الميزان (٣/ ١٣٤).